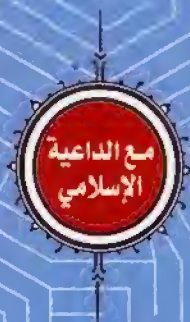


الطبعة الثانية



islamicFiles.Net

أخطأ، شائعة

في تفسير القرآن الكريم

أ.د. مبروك عطية

الدار المصرية اللبنانية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي أنزل كتابه بلسان عربي مبين ، والصلاة والسلام على المبعوث
رحمة للعالمين ، سيدنا محمد ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وصحبه الغر الميامين ،
ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين

وبعد

فقد فكرت في إعداد تفسير كامل لكتاب الله - عز وجل - وأنا أعلم قدر
التبعة ، وعظم المشقة ، لكنني قلت : إن هذا عمل رفيع القدر والدرجات ، لكنه
سيكون سفرًا عظيمًا ينضم إلى ما سبق من أسفار ، بذل فيها السادة العلماء المفسرون
أعمارهم خدمة لكتاب الله ، وسوف يكون تكرارًا لها وإن حرصت على التجديد
والإضافة ، وربط المعاني السامية بالواقع المرير ؛ فلا شك أن هناك مفارقة بين معاني
القرآن السامية وواقع الحياة بشكل أو بآخر ، ورأيت أنه لا أحد يعتكف على كتاب
تفسير طويل حتى يُتِمَّه قراءة فضلاً عن تدبر ، إلا القليل حتى طلاب الدراسات
العليا وبعض الأساتذة ، فهم يرجعون إلى تلك الكتب عند استشارتها في آية
يتعرضون لها تفسيرًا أو حكمًا أو إعرابًا ، فهم يبحثون عنها وتنتهي علاقتهم بعد
ذلك بتلك الكتب القيمة .

فأريت أن أقدم هذا العمل ، الذي أود أن يطلع عليه كاملاً كل من نظر فيه ؛
لأنه يقوم على محورين ، أو فصلين .

الأول : فهم خاطئ لبعض آيات القرآن .

الثاني : ما يجب أن يكون نصب أعين أولي الأبواب من آيات القرآن الكريم التي غابت عنا معشر المسلمين ، وما كان ينبغي لنا أن نبعد عنها ، والكتاب كله ما ينبغي أن يغيب ولا أن يهجر ، فهو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، هدى للمتقين ، ورحمة وبشرى للمؤمنين ، المتعبد بتلاوته ، الشائع لأصحابه ، الهادي للتي هي أقوم ، وهناك آيات معينة سوف يطلع عليها القارئ الكريم ، وعليها تبنى شخصيته ، وينصلح حاله ويتغير وفق نورها وهداها سلوكه .

وقد بدا لي أن الغاية من هذا الكتاب تتحقق في هذين الفصلين ، وإني لأرجو أن يكون هذا الكتاب بداية لخدمة الكتاب الكريم من حيث معايشة العلماء والدعاة المهتمين بالخطاب الديني ؛ حيث تظهر بين الحين والحين أخطاء تتجدد ، لا من باب العبارة الشائعة (القرآن حمال أوجه) ، وإنما من باب النزعات الفكرية والبدع التي تنشأ وتورث ، وقد ظهرت أيام رسول الله - ﷺ - بعض التصورات التفسيرية ، هي بلا شك أخطاء ، لكنها سرعان ما توارت حين سأل الناس عنها رسول الله - ﷺ - وما في هذا الكتاب لم يكن من تلك التصورات ، وإنما كان بعد وسوف يكون غيرها ، وقد تكون هنالك أخطاء في زماننا لم أقف عليها ، فمن وقف عليها من العلماء وجب عليه أن ينبه الناس إليها ، من باب خدمة هذا الكتاب الفريد ، والرغبة الصادقة في نصيح المسلمين ، فقد جاء في الصحيح عن رسول الله - ﷺ - أن الدين النصيحة ، ولن ترتقي نصيحة في الحياة إلى مستوى النصيحة في ضوء كتاب الله ، على المعنى الصحيح .

وقد رأيت السادة العلماء قد بذلوا جهداً مضيئاً في خدمة القرآن الكريم ، فذكروا الأوجه المحتملة وتعصب بعضهم لمذهبه اللغوي ، فحمل بعض الآيات على مذهبه ، فكان وجهه ضعيفاً ، وقد كتبت في ذلك كتاب (التعصب المذهبي

وأثره في النحو القرآني) منذ أكثر من خمسة عشر عامًا ، وقد نبهوا إلى ما كان من الصحابة من فهم لبعض الآيات ، وجههم - ﷺ - إلى المعنى الصحيح ، ومن ذلك ما يأتي :

1 - هرع الناس في زمن رسول الله - ﷺ - إليه حين فهموا من الكتاب الكريم شيئًا ظنوا فيه هلاكهم ، ومن ذلك حين نزل قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ ﴾ ⁽¹⁾ قالوا : ما من بيت إلا فيه يتيم ، فأنزل الله قوله : ﴿ وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتِيمِ قُلْ إِصْلَاحُ هُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ ⁽²⁾ .

2 - كذلك حين نزل قوله - تعالى - : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ ⁽³⁾ .

قالوا للنبي - ﷺ - أينا لم يظلم نفسه يا رسول الله ؟

فقال لهم : « ليس هذا هو المراد ، إنما المراد الشرك ، ووجههم - ﷺ - إلى آية لقمان : ﴿ إِنْ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ ⁽⁴⁾ رواه البخاري وغيره » .

3 - وفي زمان الصديق - رضي الله عنه - فهم بعض الناس قول الله - تعالى - : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ ⁽⁵⁾ .

قال ابن كثير : « قام أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، إنكم تقرأون هذه الآية ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ وإنكم تضعونها على غير موضعها ، وإني سمعت

(1) الأنعام : 152 .

(2) البقرة : 220 .

(3) الأنعام : 82 .

(4) لقمان : 13 .

(5) المائدة : 105 .

رسول الله - ﷺ - يقول : «إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه يوشك الله - عز وجل - أن يعذبهم بعقاب»⁽¹⁾.

وقد قال ابن كثير في الموضع نفسه : وليس فيها دليل على ترك الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر إذا كان فعل ذلك ممكناً .

4 - وروى أصحاب السير كابن عبد البر في الاستيعاب ، وابن الأثير في «أسد الغابة» أن عمر - رضي الله عنه - حين أراد أن يقيم حد الشرب على رجل من المسلمين قرأ عليه الرجل قول الله - فقال - : ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْخَاسِرِينَ﴾⁽²⁾.

قال له عمر : كذبت ، لو آمنت واتفقت لما ارتكبت ما حرم الله .

فهم الرجل أن ظاهر الآية يقول ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح (ذنب) فيما طعموا ، كأن ظاهرها يقول للذين آمنوا وعملوا الصالحات أن ليس عليهم من إثم في أكل أي شيء ، وشرب أي شيء ، ما داموا مؤمنين يعملون الصالحات .

وليس هذا صحيحاً ، إنما الصحيح أي الذين آمنوا وعملوا الصالحات وشربوها قبل أن تحرم ، كما ذكر المفسرون .

5 - ولعله من باب السخرية أن رجلاً قيل هو عتبية بن حصن الفزاري ، وكان من المؤلفة قلوبهم رأوه يشرب الخمر ، فقالوا له : ألم تعلم أن الله حرمها ؟ فقال : إن الله قال : ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾⁽³⁾.

(1) البداية والنهاية : 2 / 109 .

(2) المائدة : 93 .

(3) المائدة : 91 .

قال بعض الناس : نعم ، وقلنا نحن : لا .

وقيل إنه أنشد :

مَا قَالَ رَبُّكَ وَيْلٌ لِلْأَكْثَرِ سَكْرُوا بَلْ قَالَ رَبُّكَ وَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَا

وأقول لعله من باب السخرية لأن الرجل كان في زمان الفصاحة ، ولا يخفى على مثله أن قوله - تعالى - : ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ استفهام بمعنى الأمر ، أي : انتهوا وقد قال ابن كثير⁽¹⁾ : « وهذا تهديد ووعيد » فهو أبلغ من الأمر « انتهوا » . ولذلك اختلف الناس في صحة إسلام هذا الرجل .

والذين يقولون إن القرآن حمال أوجه إما أنهم يقولون ذلك على علم ، وغايتهم بيان اتساعه ؛ لأنه تنزل بلسان عربي مبين ، واللسان العربي حمال أوجه ، وكم من أساليب العرب يحمل على الحقيقة كما يحمل على المجاز ، بل إن منها ما يحمل على المعنى ومقابله ، كالبيت المشهور :

دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرْحَلْ لِئُغْيِيَهَا وَاقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي

حيث إنه يحمل على المدح ، كما يحمل على الذم .

وإما أنهم يقولونها لفتح باب المخالفة ، كأن قائلها يصر على ما يراه وهو خطأ ، وليس له من علة إلا قوله : « القرآن حمال أوجه » .

وما هذه بعلة صحيحة ؛ إذ عليه أن يقول : أرى ذلك لعلة كذا ، وهي على وجه عربي أصيل تحمل عليه الآية دون إنكار ، كآيات التشريع التي اختلف في تفسيرها الفقهاء ؛ فكان لكل وجه معتمد ، وشتان ما بين فقيه عالم ، ومتفقه متعالم .

(1) البداية والنهاية : 2 / 109 .

وقد سميت (أخطاء شائعة في تفسير القرآن الكريم) وقد ينطبق هذا الاسم على الفصل الأول انطباقاً صريحاً ، وهو كذلك - إن شاء الله - ينطبق على الفصل الثاني انطباقاً ضمناً ؛ لأن الآية إذا اتضح معناها كان من الخطأ العمل على غير هذا المعنى ، ألسنت ترى أن القرآن واضح مبين في نحو قول الله - تعالى - : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ⁽¹⁾ والفرح المذكور في هذه الآية بنصر الله للروم . لأنهم أهل كتاب ، فهم أقرب إلى المسلمين من عدوهم الفرس ، فإذا رأيت المسلمين لا يفرحون بنصر الله لغيرهم الذي هو قريب منهم فضلاً عن عدم فرحهم لما أصابهم من خير ، ألا ترى ذلك خطأ ، وهكذا ، وإني أسأل الله - تعالى - أن يجعله عملاً مباركاً خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يتقبله وينفع به الناس ، وأن يجعله في ميزان كاتبه ومن أعانه عليه إنه ولي ذلك والقادر عليه ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أ.د. مبروك عطية

الأستاذ في جامعة الأزهر ، والداعية الإسلامي

الْفَضْلُ الْأَوَّلُ

أخطاء شائعة في تفسير بعض آيات القرآن الكريم

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾⁽¹⁾.

قال ابن كثير في تفسيره 69/1 : (إني جاعل في الأرض خليفة) أي قومًا يخلف بعضهم بعضًا قرنا بعد قرن ، وجيلاً بعد جيل ، كما قال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾⁽²⁾ ، وقال : ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾⁽³⁾ ، وقال : ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ تَخْلُفُونَ﴾⁽⁴⁾ ، وقال : ﴿خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾⁽⁵⁾.

وذكر - رحمه الله - أنه ليس المراد به آدم - عليه السلام - وإلا ما حسن أن يقول الملائكة : أتجعل فيها من يفسد فيها كأنهم أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك ، وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص ، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية .

(1) البقرة : 30 .

(2) الأنعام : 165 .

(3) النمل : 62 .

(4) الزخرف : 60 .

(5) مريم : 59 .

هذا واضح جدًا في بيان معنى «خليفة»، فليس صحيحًا ما يقال بأن الإنسان خليفة الله في الأرض، على معنى قولنا: أبو بكر - رضي الله عنه - خليفة رسول الله ﷺ.

وعلى معنى قول الله - تعالى - : ﴿ وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلَحْ ﴾⁽¹⁾.

فقد كان كلیم الله موسى - عليه السلام - ماضيا إلى ميقات ربه .

فالخليفة لها معنيان : الأول : الوارد في قوله - تعالى - : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ أي قوما يخلف بعضهم بعضًا .

والثاني : الوارد في قوله - سبحانه - : ﴿ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴾ .

وإسقاط هذا المعنى على قوله - تعالى - : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ لا يصح ؛ لأنهم ليس بعد الله بعد ، والله - تعالى - لا يغيب كما غاب موسى عن قومه فخلفه هارون ، ولا يموت ، كما مات النبيون وخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ولست مع هذا العنوان (الموقعون عن الله) الذي أساسه الكتاب الموسوم بإعلام الموقعين عن رب العالمين فليس الأمر كالأمر في المصالح الحكومية يوقع الوكيل عن العميد ، والنائب عن الرئيس ، لما فيه من جرأة ، وتوهم أن الله - عز وجل - قد فوّض من يوقع عنه ، وهو إلى روح الأدب أقرب منه إلى موضوعية العلم ، فإن المجتهد إذا اجتهد فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر ، والدين مبنيٌّ على الاتساع ، وقد اجتهد الصحابة في

زمن رسول الله - ﷺ - ومعروفة قصة «لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة» أخذ بعض الصحابة بظاهر اللفظ فلم يصل العصر إلا هنالك وأخذ بعضهم بفحوى العبارة ، وأنها كناية عن الإسراع فصلوا العصر لأول الوقت ، وعلم بذلك رسول الله - ﷺ - فلم ينكر على أحد ما فعل ، ومعنى ذلك أن كلاً كان على صواب .

وقد فهم عمرو بن العاص أن معنى قوله - تعالى - : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾⁽¹⁾ يشمل عدم التعرض لما فيه أذى كثير ، فتيمم ولم يغتسل من جنابة ؛ لأن الجو كان شديد البرودة ، وصلى بالناس ، وعلم رسول الله - ﷺ - بذلك ؛ فابتسم مبالغة في رضاه عما صنع عمرو - رضي الله عنه - .

والله - تعالى - يقول : ﴿لَعَلَّهُمُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾⁽²⁾ والاستنباط أو القياس قد يصيب فيه المجتهد وقد يخطئ ، والنبي - ﷺ - يقول : «فسددوا وقاربوا» وهذا من سر الدين والتوقيع معناه الحسم والقول الفصل ، وكذلك معنى خليفة .

واليقين عند المؤمنين أن الله - تعالى - حي لا يموت ، وليس كمثله شيء ، وأنه لا يغيب ، ولا يشغله شيء عن شيء ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، وحمل الألفاظ وفق هذا اليقين مهم جداً ؛ فسبحان الحي الذي لا يموت وتبارك الله الذي لا يغيب .

(1) النساء : 29 .

(2) النساء : 83 .

العفو والصفح

﴿ فَأَعْفُوا وَاصْفَحُوا ﴾ .

وفي سورة البقرة يقول الله - تعالى - : ﴿ وَذَكَرْهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِمَّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِمَّنْ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَأَعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (1) .

قضية العفو والصفح من القضايا المهمة ؛ حيث إن من الناس من يعفو ، ولكنه لا يصفح ، لا يطوي صفحة الضر والأذى ، ويقطعها من حياته ، إنه يعفو كما يقول ، ويقبل رأس خصمه ، ويقرأ الفاتحة على دوام المعروف ، وبعد وقت طال أو قصر ، يحدث شيء بينه وبين مَنْ عفا عنه تراه يذكر ما كان ، فما زالت صفحته داخله لم تطو بعد ، وكما يقولون : تتراكم صفحات السوء ، فتطغى على الموقف الجديد ، فتنهار العلاقة بين الناس ، والدليل على ذلك قصة تلك الزوجة التي قالت يوماً : لن أعيش معه وإن قطعتموني أشلاء ، فلما سئلت عن السبب قالت : تراكمات ، مع أنها عفت من قبل . نعم . عفت ولكنها لم تصفح .

وقد قال الله - عز وجل - في آية النور : ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ (2) .

وفي اجتماع العفو والصفح بيان لتعرض المسلم إلى رحمة الله - عز وجل - تعرضاً صحيحاً على منهجه - عز وجل .

وبعض الناس يقولون : نحاول أن ننسى الإساءة فلا نستطيع ، فهل من علاج ؟

(1) البقرة : 109 .

(2) النور : 22 .

والجواب : نعم ، وذلك بأمرين مهمين :

الأول : التفكير في ثواب مَنْ غفر وصفح ، أو عفا ، فإن أجره على الله ، وذلك من عزم أمور هذا الدين .

والثاني : التفكير فيما في الصفح من حسنات فإن الحسنات يذهبن السيئات ، فإن لم تكن فيه حسنات فلتكن منك أيها الراغب في نسيان الإساءة ، والدليل على ذلك قول الله - تعالى - : ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لَتَجْرِيَ أَلْفُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ⁽¹⁾ فانظر كيف ربط بين نعمه - تعالى - على المؤمنين وبين أمرهم بأن يغفروا للذين لا يرجون أيام الله : فإن ذكر النعم يعين على نسيان النقم .

.....

﴿ وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ ⁽²⁾ .

كاد فهم الناس لهذه الآية يتوقف عند مثالهم الدال على هذا المفهوم ، وهو أن يلقي الإنسان بنفسه أمام قطار ، أو يسقط نفسه من فوق برج عال ، أو أن يرمي بنفسه من فوق جسر ؛ ليجد نفسه غريقاً في النهر ، ونحو ذلك .

(1) الجاثية : 12 - 14 .

(2) البقرة : 195 .

وهذا المفهوم لم يرد أصلاً عند أحد من المفسرين ، فمعنى الآية - كما ذكروا - أن الذي يتخلف عن الجهاد في سبيل الله . وينعم مع أهله ، فهو بهذا يلقي بنفسه في التهلكة .

ومما ذكروه أنه بعد أن استقرت الأمور ، دُعي المسلمون إلى الإنفاق في سبيل الله - عز وجل - فمن لم ينفق فقد ألقى بنفسه إلى التهلكة ، وهي الهلاك المبين .

ومما ذكروه أن معنى الآية في الذي يذنب الذنب ثم لا يتوب ، وعلى سبيل الإجمال : كل مَنْ كان قادراً على عمل شيء ولم يعمل له لرفعة دينه ، والنهوض بمستوى معيشتة فقد ألقى بيده إلى التهلكة .

ويشمل ذلك الطالب الذي لا يعتكف على كتبه ، ولم يحصل علمه بإتقان ، فإنه من غير شك يلقي بيده إلى التهلكة ، حيث يتخلف ويتقدم زملاؤه ، ويلقي بالحسرة في قلوب والديه ومحبيه ، ويضيع وقته في لهو وعبث ، والوقت غال نفيس .

والأمة الإسلامية حين يشرق فيها هذا المعنى الصحيح لهذه الآية وغيرها ستنهض من غير شك لتتبوأ مكانتها السامية بين الأمم ، فكم من جهد لم تبذل ، وكم من وقت لم تستثمر ، وكم من طاقة ضيعت ، فتخلفت وتقدم غيرها ، وهذا لا يصح بحال ، ومن أسباب هذا التخلف فيما أعتقد يقيناً أنها فهمت السلب لا الإيجاب ، فاكثفت بأنها لا تغامر ، ويا ليتها غامرت على وجه المغامرة لا المقامرة اكتفت بالسلب فلم تقدم على الأجداد ظانة بأن ذلك من باب إلقاء الأيدي إلى التهلكة ، والله نهى عن ذلك كهذا الذي أدى فهمه غير الصحيح إلى نومه في سريره ؛ فهو يظن أنه ما دام نائماً فهو في سلام وأمان ، أما إذا خرج فلربما ألقى بيده إلى التهلكة .

أرأيت إلى هذا المنافق الذي اعتذر عن الخروج من رسول الله - ﷺ - إلى تبوك ؛ لأنه لا يطيق النظر إلى بنات الروم ، ويخشى على نفسه الفتنة ، وفيه نزل قول

الله - تعالى - : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَتَذُنْ لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۚ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ۝ ﴾⁽¹⁾ .

وعلى هذا النحو كثير من الناس اليوم ، ويتعللون مع الأسف بقوله - عز وجل - : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ۚ ﴾ يقولون دائماً ما نحفظه عنهم «وعلى إيه ؟» أي وعلى أي شيء يغامر الإنسان بعمل شيء قد يكون فيه هلاكه .

بل إن المعنى قد امتد إلى أبعد من النوم والركود .. إلى الاستسلام إلى الذل ، والتنازل عن الحقوق ؛ لأن الخصم من ذوي الجاه والسلطان ، يقول بعضهم لبعض لا طاقة لنا بفلان ، إنه مؤذ ، إنه يستطيع أن يذهب بنا إلى ما وراء الشمس ، والله - تعالى - يقول : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ۚ ﴾ وليس هذا صحيحاً ، فقد سأل رجلُ رسول الله - ﷺ - فقال : أرأيت لو أن أحداً أراد أن يأخذ مالي ! فقال - ﷺ - لا تعطه مالك .

قال : أرأيت لو قاتلني ؟!

قال : قاتله .

قال : أرأيت لو قتلته ؟!

قال : هو في النار .

قال : أرأيت لو قتلني ؟

قال : أنت في الجنة .

وفي الصحيح يقول - ﷺ - : «مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ» .

إن الذي يلقي بنفسه ويديه إلى التهلكة هو الذي لا يدافع عن ماله وعرضه ، فإن قتل دونها فهو شهيد وإن قتل الباغي فالباغي في النار ، فأية تهلكة أن يكون مصيره الجنة ، أو أن يكون مصير الباغي النار ، إنها مفازة ، وفوز عظيم ، فالجنة ليست تهلكة ، وإنما هي عين النجاة من كل هلاك ﴿ فَمَنْ رُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾⁽¹⁾ .

وقضاؤه كذلك على الباغي سلامة له منه وسلامة لغيره كذلك : ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾⁽²⁾ .

وقد شرع الإسلام القضاء والتقاضي لفض النزاع والخصومات بين الناس ، وقد وقف الأقوياء مع الضعفاء أمام القضاء ، وسرت على الجميع قاعدة الدين : « البينة على من ادعى واليمين على من أنكر » وقد سأل القاضي ، علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ألك بينة ؟ فقال : لا ، فلم يحكم له ، وكانت الخصومة بينه وبين كتابي في درع ، الأمر الذي جعله يقول : هذا قضاء الأنبياء وأسلم واعترف أنه أخذ الدرع ؛ فلما أراد أن يسلمه إلى أمير المؤمنين أبي ، ووهبه إياه مكافأة له على إسلامه .

.....

حسنة الدنيا والآخرة

﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ .

يقول الله - تعالى - : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾⁽³⁾ .

(1) آل عمران : 185 .

(2) الأنعام : 45 .

(3) البقرة : 201 .

شاع عند كثير من الناس ، وقد قرأت ذلك في كتب متفرقة أن حسنة الدنيا الزوجة الصالحة التي إذا نظر إليها زوجها سرته ، وإذا أمرها أطاعته وإذا غاب عنها حفظته في عرضها وفي ماله .

وهذا من باب تضيق الواسع ؛ فإن ما ذكروه ورد به حديث شريف ، لكنه ليس في تفسير الآية ووقف معناها عليه ، فإن حسنة الدنيا تتمثل في كل أمر من شأنه أن يجعل الدنيا حسنة من مال يغني ، ودين واسع ، وزوجة صالحة وأبناء بررة ، وإخوة رحمة ، وجار حسن وزميل موافق ، وصاحب ناصح ، ومؤتمن أمين ، وصحة وعافية ، وتوفيق ، وسداد ... إلى آخر ما يعرف الناس من أسباب السعادة في الدنيا ، وليس فقط الزوجة الصالحة ، ومن دعاء النبي - ﷺ - : «اللهم أصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا» والمعاش شامل الزوجة وغير الزوجة ألسن ترى أنبياء كـ يحيى بن زكريا ، وعيسى بن مريم ، وعلماء وأولياء كالزنجشري لم يتزوجوا ، وما غص ذلك من قيمتهم ، وما نال من دعائهم إذ دعوا بهذا الدعاء وقد استجاب الله لهم ، فهداهم سبل الرشاد .

هذا ، وبعض المسلمين إذا ذكرته بحسنة الدنيا على الوجه الذي ذكرته قال لك : لا ، لا ، لا نسأل الله الآخرة فقط ، أو قال كما يقول كثير من الناس ، وسوف يأتي بيانه في موضعه إن شاء الله - تعالى - من سورة يوسف «ربنا يخرجنا منها على خير» .

وهذا لا يجوز ، فإن حسنة الدنيا مطلوبة بدليل هذه الآية وغيرها ، والدنيا ليست على أيدي هؤلاء ، من البغض والسوء ، والسواد واللعة ، وأنها دار الباطل ، كما يقولون في الميت «هو في دار الحق ونحن في دار الباطل» فمن قال إن الآخرة دار

الحق والدنيا دار الباطل ؟ إن الدنيا دار الحق ، ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ (1) .
و﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (2) .

.....

﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى﴾ .

أعتقد أن الضعف اللغوي سبب رئيسي من أهم أسباب الفهم القاصر في مثل هذه الآية وغيرها من آي الذكر الحكيم ، فالله - تعالى - يقول : ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (3) .

حيث زعم كثير من الناس أن قوله تعالى - لمن اتقى - متصل بمن تأخر ، أي في رمي جهرات منى ثلاثة أيام ، يفهمون أن الله - تعالى - يقول : فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ، ومن تأخر إلى ثلاثة أيام فذلك هو التقي ، وليس هذا صحيحاً ؛ فقوله تعالى ﴿لِمَنِ اتَّقَى﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره : هذا التخيير لمن اتقى ، والله در الزمخشري حيث قال وهو الحاج على الحقيقة ، أي أن الحاج هو التقي ، ونعم القول قوله : ﴿لِمَنِ اتَّقَى﴾ : أي : ذلك التخيير ، ونفى الإثم عن المتعجل والمتأخر لأجل الحاج المتقي ؛ لئلا يتخالج في قلبه شيء منهما ، فيحسب أن أحدهما يرهق صاحبه آثام في الإقدام عليه ؛ لأن ذا التقوى حذر متحذر من كل ما يريبه ، ولأنه هو الحاج على الحقيقة عند الله (4) .

(1) الإسراء : 105 .

(2) الإسراء : 81 .

(3) البقرة : 203 .

(4) الكشف للزمخشري : 352/1 .

ومع الأسف لم أجد أحدًا من الدعاة الهواة الذين يصحبون الحجيج في رحلاتهم كل عام ، يتعرض لشرح ذلك بل إن منهم - مع الأسف - من يفهم هذا المعنى الذي يفهمه عامة الناس ، إنما شغل هؤلاء الشاغل في قصص الرقائق ، وفي حديث شريف «خذوا عني مناسككم» فهم يرون أن رمي الجمرات فقط عند الزوال ، وليس كما يرى الأئمة المعاصرون من شتى بقاع الأرض على مدى الساعة ، نظرًا إلى الزحام الرهيب ، وغير ذلك من المآسي .

ومعنى الآية واضح في أن من تعجل في يومين فلا إثم عليه ، ومن تأخر إلى ثالث ، فلا إثم عليه ، وذلك بسبب أن الجاهلين كانوا فريقين في ذلك ، الأول : يقول : من تعجل فهو آثم ، والثاني : يقول : من تأخر فهو آثم ، فنزلت الآية الكريمة على التخيير أي من تعجل في يومين فلا إثم عليه ، ومن تأخر فلا إثم عليه وهذا بيان الله - تعالى - لمن اتقى ، أي للحاج الذي هو تقي كما قال الزمخشري - عليه رحمة الله - تعالى .

فهنيئًا لمن وفقه الله - تعالى - إلى زيارة بيته ، وإتمام حجه وعمرته ، وهنيئًا لمن تقبل الله منه .

وقد قال الله - تعالى - : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾⁽¹⁾ .

قال العلماء :

شرط قبول العمل في الإسلام أمران :

الأول : أن يكون خالصًا لله .

والثاني : أن يكون صحيحًا .

ولتوضيح ذلك أقول : لا تقبل صلاة من عزم على الإخلاص ، وهو يصلي الظهر ثلاث ركعات أو يتعمد أن يصلي إلى غير القبلة ، أو العكس كالذي يصلي صلاة صحيحة رياء .. أعتقد أنه ليس من الصحة أن يعتقد مَنْ بقي ثلاثة أيام في منى أنه هو التقي .

.....

﴿وَقَدِّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ﴾ .

وفي سورة البقرة يقول الله - تعالى - : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثُ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوُهُ وَنَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾⁽¹⁾ .

سمعت طبية متخصصة في العلاقة الجنسية بين الأزواج تقول : إن معنى ﴿وَقَدِّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ﴾ معناه مقدمات الوطء من القبلة والمداعبة ، وغير ذلك ، وكنت أود أن تطلع هذه الطبية ولو على تفسير الجلالين ، حيث يقول السيوطي - رحمه الله - ﴿وَقَدِّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ﴾ : العمل الصالح ، ولأن الآية في سياق العلاقة الخاصة المعروفة بالحميمة بلغة الناس اليوم وبالوطء والمباشرة بلغة الفقهاء قال السيوطي : كالتسمية عند الجماع .

يقول الزمخشري - رحمه الله - : ﴿وَقَدِّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ﴾ : ما يجب تقديمه من الأعمال الصالحة وقيل : هو طلب الولد ، وقيل : التسمية عند الوطء⁽²⁾ ولا يصح أن نختلف عن معنى الأعمال الصالحة ، ونتوقف عند مقدمات النكاح (فإنه يرد

(1) البقرة : 223 .

(2) الكشف 362/1 .

بمعنى الوطء والمباشرة) وفي التنزيل : ﴿ وَمَا تَقْدِرُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَحْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا ﴾ (1).

وهذه القضية من القضايا المهمة في حياتنا المعاصرة ، أن نتوقف عند شيء ، أشبه ما يكون بالنافلة ونهمل الركن الذي تتأسس عليه حياتنا .

وقفنا طويلاً عند صلاة التراويح ، ولم نتوقف عند الصلاة المكتوبة ، ووقفنا أحياناً عند الصلاة المكتوبة ولم نتوقف عند روح تلك الصلاة المكتوبة ، أي عند قول الله - تعالى - من سورة العنكبوت : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ (2).

كذلك الحال وقفنا طويلاً عند المعاشرة الزوجية إلى درجة أننا أطلقنا عليها الحق الشرعي ، وكأن جميع ما للزوجة من حق شرعي يتمثل في الجماع ، مع أن لها من الحقوق الشرعية الكثير ، من حسن العشرة ، والملاطفة ، والنفقة ، والرعاية ، والتعليم ، وغير ذلك مما هو منوط بالرجل ، أن يقوم به .

وأنشأنا برامج قامت بها مثل هذه الطيبة ، برامج في الجنس ، وأقمنا الندوات والمؤتمرات ، واعتبرناها ثقافة ، ونادت إحدى المخرجات بضرورة تصوير تلك العلاقة في أفلام السينما دون الإشارة إليها ، كما طالبت ومعتها غيرها بتدريس ذلك لطلاب المراحل التعليمية المختلفة ، بدءاً من المرحلة الابتدائية .

نقيم الدنيا ولا نقعدها - كما يقال - في قضية من القضايا التي هي بلا شك مهمة ، لكنها لا تحتاج إلى هذا الضجيج ، ولا إلى تلك الثورة ، حتى وإن أحدثنا بسببها ثورة فما يكون لنا أن نخضع لها كتاب الله - عز وجل - الذي أشار إليها كما

(1) المزمّل : 20 .

(2) العنكبوت : 45 .

قال علماء المسلمين في نحو قوله - تعالى - : ﴿ أَوْلَمَسْتُمْ إِلَيْسَاءَ ﴾⁽¹⁾ لأن الكتاب الكريم يكتفي عن مثل هذه الموضوعات بأسمى آيات الأدب ، وهو يعلمنا بلا شك هذا الأدب .

.....

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ .

ومن الضعف اللغوي الذي أدى إلى قصور الفهم لأي الذكر الحكيم ما يظنه كثير من الناس في قول الله - تعالى - : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾⁽²⁾ حيث يظن السواد الأعظم من الناس أن قوله تعالى ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ جواب الطلب ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ والمعنى إن تتقوا الله يعلمكم الله ، وأدى ذلك الفهم غير الصحيح إلى إهمال العلم وطلبه ، والتعب والمشقة في سبيل تحصيله ، فما الداعي إلى البكور وإلى التزاحم على دور العلم ، والمسألة أهون من ذلك بكثير فهي : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ ومعناها عند هؤلاء : أن التقى يعلمه الله العلم اللدني ، بلا معلم ، ولا كتاب ، ولا قرطاس ، ولا امتحان ، ولا نجاح ، ولا رسوب ، ولا وجع للقلوب .

وليس هذا المعنى صحيحاً ، فجميع العلماء على أن ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ جملة مستأنفة ، و﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ جملة مستأنفة كذلك : فلا ربط بينهما ، ولو كانت ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ جواباً للطلب لجاءت بدون الواو ؛ إذ الواو لا تدخل في

(1) المائدة : 6 .

(2) البقرة : 282 .

جواب الطلب ، ألسـت ترى قوله - تعالى - : ﴿ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ ⁽¹⁾ ما قال ربنا : « فاتبعوني ويحببكم الله » بالواو .

فالواو لا تزداد في جواب الطلب ، تقول : اجتهد تنجح وهو عند اللغويين على معنى الشرط ، أي : إن تجتهد تنجح وفيه (أي تنجح) وجهان : الجزم ، والرفع .

ولم يأت بالواو كما ترى ، أي لم تقل : اجتهد وتنجح . فلا صلة بين قوله تعالى ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ بالأمر بالتقوى إنما هو كلام مستأنف كما ذكره العلماء جميعاً ، أي ويعلمكم الله أحكام دينكم الذي ارتضى لكم ، ومن هذا : ماذا تفعلون إذا تدايتم ، مما سبق بيانه في الآية الكريمة (282) من سورة البقرة ، وهي المعروفة بآية الدين ، وهي أطول آية في كتاب الله - عز وجل - .

ولقد سمعت - مع الأسف الشديد - أحد علمائنا الكبار يقول في قوله - عز من قائل - : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ ما يقوله العوام تماماً بتمام ، لكنني آنست شيئاً مرعباً ، هو أنه كان جالساً مع قوم لا يفهمون إلا هذا المعنى ، أي من الذين يرون أن العلم هو علم الله ، يهبه للتقي ، ومثالهـم على ذلك العبد الصالح «الخضر» ويرونه كأنه يسكن بينهم في ذات الشارع ، وكأننا في زمانه ، وكأننا ما نقل إلينا قول سيدنا رسول الله - ﷺ - الذي رواه البخاري «خيركم من تعلم العلم وعلمه» وقوله - ﷺ - «إنما العلم بالتعلم» وكأننا ما درسنا سيرته العطرة ، وعلمنا أنه قبل من أسارى بدر ، الذين لم يكن معهم مال للفتاء أن يعلم أحدهم عشرة من أبناء الأنصار القراءة والكتابة ، وأن أحد كتاب الوحي ، وهو زيد بن ثابت - رضي الله عنه - من هؤلاء الذين تعلموا ، وقد أمره النبي - ﷺ - أن يتعلم لغة يهود ، فتعلمها في خمسة عشر يوماً ، وتعلم - رضي الله عنه - غيرها من خدم رسول الله - ﷺ - .

ولا ينكر أحد فضل التقوى ، وأنها سبب في كل خير فقد قال الله - عز وجل - : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾⁽¹⁾ ويكفي المتقين شرفاً وكرامة أن هذا الكتاب الكريم هدى لهم ، قال - تعالى - في صدر سورة البقرة : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾⁽²⁾ .

ولكن ليس معنى هذا أن يتعلم التقي العلم بلا معلم وليس معناه أن يحمل كتاب الله - عز وجل - على غير معناه أو على محمل لا يصح ، وليس من شرف العالم أن يجامل قوماً على حساب دينه ، فإنهم مع الأسف يستشهدون به ، وبه يحتاجون على مَنْ عارضهم ، وأراد لهم الخير بالفهم الصحيح .

.....

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ .

يقول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ يُغْفِرْ لَهُمْ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾⁽³⁾ وهذه الآية وغيرها من الآيات التي ورد فيها ذكر الله - تعالى - مما نحن في حاجة إلى بيانه وتفسيره ؛ حيث إن السواد الأعظم من الناس يفهم ذكر الله على أنه النطق بلفظ الجلالة ، وتكرار أسماء الله الحسنى ، بأن يقول : يا رحيم ، يا رحمن ، يا ودود ، يا لطيف ، يا غفور ، يا غفار ، وهكذا ، وبعضهم يقول : لقد ذكرت الله اليوم ألف مرة ، والعجيب أن الذي يقول ذلك قد يكون من الذين

(1) الطلاق : 2 ، 3 .

(2) البقرة : 2 .

(3) آل عمران : 135 .

يؤخرون الصلاة عن أول وقتها ، وفيه من الكرامة والفضل ما ذكره ابن عبد البر - رحمه الله - في التمهيد وغيره وقد روى البخاري في صحيحه عن سيدنا رسول الله - ﷺ - قوله في جواب مَنْ سألَه عن أحب الأعمال إلى الله - تعالى - « الصلاة على وقتها » وورد في التفسير عن قول الله - تعالى - من سورة الماعون ﴿قَوْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾⁽¹⁾ أنهم الذين يؤخرون الصلاة عن أول وقتها لغير عذر ، أي ليسوا الذين هم تاركون لها أصلاً ، فهؤلاء فيهم كلام آخر مبسوط في كتب الفقه .

ولست أدري كيف يكون المهمل في صلاته ذاكراً لله - عز وجل - لا شك في أنه كذلك بالنسبة إلى مفهومه القاصر ، حيث فهم أنّ ذكر الله - تعالى - يعني ترداد أسمائه الحسنی باللسان ، وقنع بذلك ، ورضي به .

وقد يكون هذا الذاكر لله - عز وجل - باللسان قاطعاً لأرحامه ، مسيئاً إلى جيرانه ، بعيداً أي بعد عن روح دينه ، وتعاليمه كالذي يصلي خصوصاً الفجر حاضراً في جماعة مسجده ، وهو يفعل المنكرات ، ويرتكب الفواحش ، وكأنه لم يقرأ قول الله - تعالى - : ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾⁽²⁾ .

وقضية ذكر الله - عز وجل - كما وردت في الكتاب الكريم على حذف مضاف ، فهي هنا في آية آل عمران على تقدير : ذكروا عقاب الله ، أو وعيد الله ، أو حق الله العظيم ، على ما ذكره في تقديره الزنجشيري⁽³⁾ - رحمه الله - .

(1) الماعون : 4 ، 5 .

(2) العنكبوت : 45 .

(3) انظر الكشف : 464/1 .

وكذلك قول الله - تعالى - في آية الأنفال : ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾⁽¹⁾ فالتقدير هنا : «إذا ذكر وعيد الله وجلت قلوبهم» .

وفي آية الرعد : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾⁽²⁾ .

فالتقدير هنا : وتطمئن قلوبهم بذكر وعد الله وهذا يفسر لنا المفارقة بين ظاهر الآيتين ، فكيف يكون ذكر الله - تعالى - سبباً في وجل القلوب ، وكيف يكون هو نفسه سبباً في اطمئنانها ؟ فالأول معناه : إذا ذكر وعيد الله والثاني معناه : إذا ذكر وعد الله ، فالوعد يسبب الوجل ، والوعد يسبب الاطمئنان .

والله - عز وجل - يقول في آية الأحزاب : ﴿ يَتَأَيَّمُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَدْخُلُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾⁽³⁾ والمعنى كما هنا ، ومعناه اذكروا أحكام دينه ، وذكر الله بهذا المعنى منهج حياة بمعنى أن يذكر العبد المكلف حكم دينه قبل أن يعمل العمل أهو حلال ؟ أو مباح ؟ أهو مكروه ؟ أهو حرام ، وهكذا ، أأست ترى كثيراً من الناس يعملون العمل ، ثم يسألون بعد ذلك ، كهذا الذي يقول لامرأته : أنت طالق ، ثم يقول : لم أنو الطلاق ، أما كان يحسن أن يعرف أن هذا هو الطلاق الصريح ، الذي لا يحتاج إلى نية !

أليس هذا من ذكر الله - عز وجل - أي من ذكر أحكام شرعه !

ناهيك بسؤال الهواة من الدعاة ، غير العلماء الذين نذروا أعمارهم في طلب العلم وتحصيله ، أليس من ذكر الله - عز وجل - سؤال أهل العلم ؛ فقد قال الله

(1) الأنفال : 2 .

(2) الرعد : 28 .

(3) الأحزاب : 48 .

- سبحانه - : ﴿ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾⁽¹⁾ فلا شك أنه من ذكر الله - تعالى - سؤال أهل العلم ، الذين هم أهل الذكر ، وغيرهم من أصحاب الخبرة في شتى الأعمال ، فسؤال الجاذر عن الذبائح ، وسؤال الطبيب الخبير بالطب ، والفلاح الخبير بالزراعة ، والخريث الخبير بالطرق ، من سؤال أهل الذكر ، وهو ذكر الله - عز وجل - الذي أمرنا بسؤالهم دون سواهم من الذين لا يعلمون .

وخلاصة القول أن ذكر الله - تعالى - أساسه انشغال الفكر والوجدان بوعده على عمل الصالحات ، ووعيده على فعل السيئات ، وتذكر أحكام شريعته : ﴿ إِنْ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾⁽²⁾ وإذا صادف ذلك ذكر باللسان فهو من ترطيب اللسان بذكر الله ، لكن ذكر الله باللسان فقط ذكر الكذابين كما قال العلماء في الاستغفار باللسان إنه استغفار الكذابين .

.....

﴿ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ .

وفي سورة آل عمران : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾⁽³⁾ .

كثير من الناس يفهم قوله - تعالى - : ﴿ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ على أنه دعاء على الظالمين ، والأعداء ، وليس كذلك ، فمعنى ﴿ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ ﴾

(1) الأنبياء : 7 .

(2) الأعراف : 201 .

(3) آل عمران : 173 .

وَنَعَمْ الْوَكِيلُ ﴿ الله كافينا قال الزمخشري ⁽¹⁾ : «حسبنا الله : محسبنا ، أي كافينا ، يقال : أحسبه الشيء إذا كفاه ، والدليل على أنه بمعنى المحسب أنك تقول : هذا رجل حسبك ، فتصف به النكرة ؛ لأن إضافته لكونه في معنى اسم الفاعل غير حقيقية ، ونعم الوكيل : ونعم الموكل إليه» .

وقد نزلت الآية الكريمة في المسلمين حين دُعوا من رسول الله - ﷺ - إلى متابعة المشركين صبيحة يوم الأحد السادس عشر من شوال في السنة الثالثة من الهجرة الشريفة ، وقد خوّفهم الناس من قبيل الحرب النفسية فقالوا لهم إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فما زادهم ذلك إلا إيماناً بربهم ، فما فتّ في عضدهم ، وما أخافهم وما أرجعهم عن عزمهم ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فكانوا كما قال الله : ﴿ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ دِيَارِهِمْ فَأَتَىٰ خِثْيَاهُ فَوَجَدَ فِيهَا رِجَالًا مُّجِيبِينَ رَأْسَهُمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَاثْبَثُوا خِثْيَاهُمْ أَفَتُحِبُّونَ أَنْ يَتَخَفَتُوا بِحِزْبِ الْفُجَرَاءِ أُولَٰئِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ ⁽²⁾ .

وقال الله - عز وجل - : ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ ⁽³⁾ أي أن الشيطان يخون أوليائه بمثل هذه الحرب النفسية التي تفتّ في العضد ، وتضعف القوى ولكن الذي يخاف الله ، وهو من أوليائه يثبت عند الشدة متى أخذ بالسبب ، فالله حسبه ، وهو - عز في علاه - نعم الوكيل ، فمن قال «حسبي الله» وكذا من قال «وأفوض أمري إلى الله» إنما يقولها وهو منطلق إلى حركة الحياة وليس يقولها وهو نائم ، أو متناعس كما هو حال كثير من الناس الذين نراهم في مواقف كثيرة ، تسألهم : ماذا فعلتم في كذا ؟ فيقولون :

(1) انظر : الكشف : 481/1 .

(2) آل عمران : 174 .

(3) آل عمران : 175 .

لم نفعل شيئاً ، قلنا: «حسبنا الله ونعم الوكيل» وكأنهم فهموا أن معنى قوله - تعالى - : ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ ألا تفعل شيئاً ، أن تسكن ، وتستسلم ، فالله حسبك ، ينتقم لك ممن ظلمك ، وليس هذا المعنى صحيحاً على الإطلاق بدليل ما تقدم ، فقد خرج المسلمون برغم جراحاتهم ، مع رسول الله - ﷺ - وهم يقولون حسبنا الله ونعم الوكيل ، فكفاهم الله القتال وانقلبوا - كما قال تعالى - بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ؛ ذلك لأنهم قالوا : ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ وهم يتحركون ، وينطلقون .

لم يقولوها وهم نائمون ، أو مستسلمون لأعدائهم متى شاءوا انقضوا عليهم .
ولذلك يقول المؤمن ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ وهو طالب علم ، يسعى إلى تحصيله برغم الصعاب والعقبات ، ويقولها الفلاح ، وهو يعالج الأرض بالمحراث ، والفأس ويقولها الطبيب ، وهو يعالج مريضه غير مغتر بعلمه ، وغير عاجز عن فهم حالته وتشخيصها .

وتقولها المرأة وهي مقبلة على زواج فهمت فيه ظروف المتقدم وأنها مناسبة لها ، ولكن هناك من يخوفها ويقولها رجل الأعمال الذي هو مقبل على مشروع أو على صفقة ، وقد أعد لها دراسة جدوى حقيقية وهناك من يغدره ويخوفه ، ويعدده بالخسارة .

ولا يقولها كسول ، جبان ، فاهم دينه على خطأ ، ينطق أن قول الناس ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ يقولها أهل الله - الذي لا يأخذون بسبب ، ولا يعملون عملاً أو أنهم يدعون بها على من ظلمهم ، فهذا كله من قبيل الدجل ، والفهم القاصر ، الذي ينبغي أن نتخلص منه إن كنا نريد إصلاحاً وتوفيقاً ، إصلاحاً لديننا وديننا وآخرتنا ، وليس من الإسلام أن يقول المرء لأخيه : اسكت وإلا حسبنت عليك ،

أخطاء شائعة في تفسير القرآن الكريم
فما معنى هذا ؟ إنما الحسبة أن يقول «حسبي الله» ، وقد فهمنا الآن معناها الصحيح
فهل من مدكر !

.....

﴿الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ .

وفي سورة النساء يقول الله - تعالى - : ﴿الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا
فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالْصَّالِحَاتُ قَنِينَتٌ حَفِظَتُ
لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَالَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي
الْمَضَاجِعِ وَاصْزُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا
كَبِيرًا﴾ (1) .

قوامون مبالغة من القيام ، أي أن الرجل كثير القيام على خدمة المرأة وكأنه
لا يألو جهداً في خدمتها . فإن شئت قلت : معنى الآية : الرجال خدامون للنساء
ولا تتعجب ، فقد روى البخاري وغيره من حديث عائشة - رضي الله عنها - أنها
سئلت : كيف كان رسول الله - ﷺ - في بيته ؟ فقالت : كان في خدمة أهله .

فكيف فهم الناس معنى ﴿الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ أنه بمعنى السيطرة
والهيمنة والإمساك بالسوط والعصا ، والقهر ، والإذلال !

هذا ما أنزل الله به من سلطان ، وقد شاع هذا المعنى بين كثير من الناس
خصوصاً النساء اللاتي أدّى بهن هذا الفهم الخاطئ إلى التصريح بقولهن إن الدين

(1) النساء : 34 .

يشجع الذكورة ، وقالت إحداهن : إنه دين ذكوري لا أنثوي ، وهذا فحش في القول وجناية على الإسلام ، الذي هو دين الرحمة والمودة ، والرفق بالمرأة إلى حد ، لم يعبر عنه أديب ، ولم تعرفه منظمة من منظمات أطلقت على نفسها «الإنسانية» والمرأة ، والمطلقة ، وغير ذلك ، وفي خطبة الوداع يقول - ﷺ - استوصوا بالنساء خيراً ، وما أكثر وصاياه - ﷺ - بالنساء ، وقد قال لأنجشة وكان يحدو بالنساء في السفر ، أي يغني للإبل ، فتسرع وفي ذلك مشقة عليهن : «رفقاً بالقوارير» ، ومنذ ولادة المرأة والدين يأمر برعايتها ، وجعلها في المقدمة ، حيث قال : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ خَلَقَ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذَّكَورَ * أَوْزَوْجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ ⁽¹⁾ وفي البخاري من ربي جارية فأحسن تربيتها حتى زوجها كانت له عتقاً من النار ، وفيه أيضاً أن امرأة زارت بيت النبي - ﷺ - ولقيت أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - ولم يكن في بيت الكرم والجود غير ثمرة ، فأعطتها إياها وكانت معها ابنتها ، فوضعت الأم الزائرة الثمرة في فمها ، لا لتأكلها ، وإنما لتقسمها نصفين ، وأخرجتهما وأعطت كل واحدة منهما نصفها ، فقالت أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - ذلك للنبي - ﷺ - فبشرها - ﷺ - بالجنة وبشر كل من أحسن في بناته بالجنة .

والكلام يطول في هذا السياق جداً ، لكن رب إشارة تغني عن عبارة ، الأمر الذي يدل على أن فينا انحرافاً شديداً عن منهج الله - عز وجل - في التعامل مع المرأة ، بهذا العنف ، وتلك القسوة ، وليس في الدين شيء من هذا على الإطلاق ؛ فقد قال الله - عز وجل - : ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ

مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ^{٢٩} ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ^{٣٠} وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَرَجٍ أَخْرَجَ شَطَطَهُ^{٣١} فَكَازَرَهُ^{٣٢} فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوْقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ^{٣٣} وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا^{٣٤} .

فهؤلاء لا يمكن أن يكون منهم عنف ، ولفظ «عنف» غير وارد في معجم المسلمين ؛ فقد قال أهل اللغة إنه التصرف بحمق ، والمسلم لا يكون أحق بحال ، وإن اعتراه الحمق حيناً فهو يتوب إلى الله - عز وجل - منه ؛ لأنه منيب إلى ربه أواب ، وقد قال - عز وجل - : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾^(٢) .

ولكن يوصف المسلم بالشدة ، كما قال الله - تعالى - ولكنها شدة على الكاذبين ، لا على المؤمنين ، وقد قال الله - عز وجل - : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾^(٣) .

فمن صفات الذين يحبهم الله - عز وجل - ويحبونه ، أنهم أذلة على المؤمنين ، أعزة - أي أشداء - على الكافرين ، أما بينهم وبين بعضهم فكل منهم ذلول لأخيه ، وفي الصحيح يقول النبي - ﷺ - : «المسلم أخو المسلم» وتقتضي الأخوة ألا يقسو عليه ، وأن يرحمه ، قال - تعالى - في مقتضى الأخوة : ﴿ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ ﴾^(٤) .

وقال - ﷺ - فيما رواه البخاري : «خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي» وليس من الخيرية أن يقسو المرء على أهله ، وقد سبق ذكر الحديث الصحيح الشريف «كان - ﷺ - في خدمة أهله» .

(1) الفتح : 29 .

(2) النور : 31 .

(3) المائدة : 54 .

(4) يوسف : 69 .

﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ﴾ .

يقول الله - عز وجل - : ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ^١ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَنْزَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ^٢ وَإِنْ تَصْلَحُوهَا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا^(١) .

سمعت إحدى الكاتبات الصحفيات على إحدى الفضائيات تصدع بما فهمت وفهمه كثير من الناس لا سميا النساء وتقول : «واحدة ، يتزوج المسلم واحدة ، لأن الله يقول : ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾^(٢) وقال : ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾^(٣) يعني مستحيل أن يعدل الزوج بين أزواجه ، وما دام ذلك مستحيلاً فواحدة ... ف «إيه» ؟ فواحدة ، وضحكت ، وصفق لها الحضور .

مسرحة ، ملهاة ، كما يقول أهل الأدب والنقد ، وسمعت ذلك من أكثر من امرأة تحمل ورقة عالية في الثقافة .

وقول الله - تعالى - : ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ ليس معناه على هذا النحو العجيب الذي تستنبط منه امرأة مع أسمى آيات الاحترام والتقدير لكل امرأة على وجه الأرض ، وهي غير قادرة على الاستنباط أنه لا بد من واحدة .

وإنما معناه الرحمة من الله بالرجال الجامعين بين أكثر من زوجة ، فقد ذكر أنهم لن يستطيعوا العدل بين النساء وإن حرصوا ؛ لذلك قال : ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ﴾

(1) النساء : 129 .

(2) النساء : 3 .

(3) النساء : 129 .

لم يقل : فلا تتزوجوا إلا واحدة ، يعني : يا معشر الرجال ، إني أنا ربكم ، وأعلم بكم في هذه المسألة وفي غيرها ، إنكم لن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ، فلا تميلوا كل الميل إلى واحدة دون أختها ، فينتج عن ذلك أن تكون أختها كالمعلقة ، التي لا هي زوجة ولا هي مطلقة والميل هنا هو الميل القلبي ، وإلا فالعدل في القسمة المادية واجب شديد ، وقد قال - ﷺ - في الحديث الذي رواه أبو داود عن عائشة - رضي الله عنها - : «اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك» يعني القلب وهو مرسل على الصحيح ⁽¹⁾ .

وقول الله - تعالى - : ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ يشهد به واقع الحياة ؛ حيث إن هناك زوجة تأسر زوجها بحسن عشرتها ، وبجمالها وبملاطفتها إياه ، وبادخارها له شيئاً مما يحب ، وبغير ذلك من أسرار القلوب ، التي لا يملكها الإنسان ، وإنما هي بيد الله - عز وجل - يقلبها حيث يشاء .

من أجل ذلك قال الله - ربنا - : ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ﴾ ثم قال : ﴿ وَإِنْ تَصْلَحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

قال ابن كثير : «أي وإن أصلحتم في أموركم ، وقسمتم بالعدل فيما تملكون ، واتقيتم الله في جميع الأحوال غفر الله لكم ما كان من ميل إلى بعض النساء دون بعض» ⁽²⁾ .

فانظر إلى آيات رحمة الله بعباده ، ثم تعجب من سوء فهمنا لآيات الله ، الأمر الذي يؤدي إلى الجور على أحكام الشريعة الغراء ، كما رأيت من صياح الكاتبة التي

(1) انظر : البداية والنهاية ، 1 / 564 .

(2) المصدر السابق : 1 / 564 .

_____ الفصل الأول : أخطاء شائعة في تفسير بعض آيات القرآن الكريم

كانت تزهو باستنباطها وأنها تفوقت على علماء المسلمين قديماً وحديثاً ، وهديت إلى معرفة الحق ، وهي بلا شك أبعد ما تكون عنه في ذلك !

.....

﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ .

يقول الله - عز وجل - : ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾⁽¹⁾ .

أبدأ بما قاله ابن كثير⁽²⁾ حيث قال ما نصه ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ : قال سفيان الثوري عن طلحة عن عطاء عن ابن عباس أي القربة ، وكذا قال مجاهد ، وأبو وائل ، والحسن ، وقتادة ، وعبد الله بن كثير ، والسدي ، وابن زيد وغير واحد ، وقال قتادة : أي تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه ، وقرأ ابن زيد ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾⁽³⁾ وهذا الذي قاله هؤلاء الأئمة لا خلاف بين المفسرين فيه ، وأنشد عليه ابن جرير قول الشاعر :

إِذَا غَفَلَ الْوَاشُونَ عُدْنَا لَوْضِلْنَا وَعَادَ التَّصَافِي بَيْنَنَا وَالْوَسَائِلُ

والوسيلة هي التي يتوصل بها إلى تحصيل المقصود ، والوسيلة أيضاً علّم على أعلى منزلة في الجنة ، وهي منزلة رسول الله - ﷺ - وداره في الجنة وهي أقرب أمكنة الجنة إلى العرش ، وقد روى البخاري في صحيحه عن جابر بن عبد الله قال :

(1) المائدة : 35 .

(2) البداية والنهاية (ابن كثير) : 52/2 .

(3) الإسراء : 57 .

قال رسول الله - ﷺ - : «من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته» إلا حلت له الشفاعة يوم القيامة .

وأقف عند قول ابن كثير : «وهذا الذي قاله هؤلاء الأئمة لا خلاف بين المفسرين فيه» لأقول : فكيف خالف كثير من الناس جميع المفسرين فيه وظنوا أن الوسيلة هي التوسّل إلى الله - عز وجل - بالأضرحة ، والأمكنة المباركة !

ذلك تفسير هوى ألفوه ، من ميراث لا صله له بصحيح الدين ، فكونك تزور القبور بما فيها الأضرحة لا يعني أنك تتوسل إلى الله بساكنيها أو بزائر بها ، فهم في حاجة إلى دعائك ؛ لأنهم أفضلوا إلى ما قدموا وما من ميت إلّا ويصلي عليه الناس ، والصلاة دعاء له بالرحمة والمغفرة ، ومن دعائنا على موتانا «اللهم إن كان محسناً فزد في إحسانه ، وإن كان مسيئاً فتجاوز عن سيئاته ، ولقّه برحمتك الأمن إلى يوم القيامة» .

ويبدو أن لهذا سبباً أساساً هو العادة المتوغلة في فكر الناس ، ترى ذلك واضحاً في طالب علم يحصل على تقدير «ممتاز» بجهده وتحصيله ، ولا يكتفي بذلك ، بل يتصل بعزيز على والده أن يوصى عليه في الامتحان ، ويلج على شيخه أن يعامله بالرافة ، وغير ذلك .

ومثله مئات ، بل ألوف من الناس ، ترى الواحد منهم يستطيع أن ينال ما يرجو بجهده وعقيدته ، وعلمه وماله ، ومع ذلك يصر إصراراً على الوساطة مع أنه ليس في حاجة إلى تلك الوساطة .

وقد يقول قائل : إنه ربما يفعل ذلك لعلمه أن هذا مما عمت به البلوى في البلد ، وقد شاع بين الناس أنه لا شيء يقضى في هذا البلد إلا بواسطة إلى درجة أن هؤلاء الذين ينجحون بجهدهم في امتحانات العلوم ، وقيادة السيارات ، وغيرها يظنون

أنهم نجحوا بهذه الوساطة لا بجهدهم ، وذلك من هيمنة الفكرة السيئة عليهم واستحواذها على عقولهم واستقرارها في وجدانهم ، وهذا لا ينكر ، ويمكن أن يكون إضافة إلى ما سبق ذكره ، فهو مما يعضده ، اعتقاد ، ومناخ يساعد على نشر هذا الاعتقاد .

وقد تسرب ذلك إلى العقيدة ، فتوهم أناس كثيرون أن العمل الصالح الذي هو المراد بقوله - تعالى - : ﴿ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ لا يكفي للوصول إلى رحمة الله ، وإنما يكون معه التوسل بالصالحين وغيرهم وهذا لا يصح ، ويكفي قول ابن كثير : « لا خلاف فيه بين الأئمة » .

.....

﴿ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ .

يقول الله - تعالى - : ﴿ إِنَّا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾⁽¹⁾ .

فهم بعض الناس من قديم أن جملة ﴿ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ حال ، وذكر ابن كثير أن منهم من اختلق قصة لعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه - بأنه أعطى مسكيناً وهو راعع يقول الالوسي⁽²⁾ : ﴿ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ حال من فاعل الفعلين ، أي يعملون ما ذكر من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وهم خاشعون ومتواضعون لله تعالى .

وكذلك قال الزخشي⁽³⁾ : ﴿ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ الواو فيه للحال ، أي يعملون ذلك في حال الركوع وهو الخشوع والإخبات ، والتواضع لله ، إذا صلوا وإذا زكوا .

(1) المائدة : 55 .

(2) روح المعاني : 4 / 898 .

(3) في الكشف : 1 / 624 .

وذكر - رحمه الله - ما نسب إلى علي - رضي الله عنه - بأنه خلع خاتمته وهو راعع ، وأعطاه السائل ، فكان ذلك عملاً عظيماً ، لا تبطل بسببه الصلاة وأشار ابن كثير إلى هذه القصة دون أن يذكر لها سنداً ، وبين أنها من أقوال مَنْ رأى جملة ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ حالاً ، وذكر أن ذلك ليس بصواب .

أي وهم راكعون في إيمانهم ، وهم راكعون في صلاتهم ، وهم راكعون في زكاتهم ، أي خاشعون لله - عز وجل - في كل عمل يعملونه ، وقد قال - تعالى - : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِفَافٍ مَعْرُضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾⁽¹⁾ .

وقال - عز من قائل - : ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾⁽²⁾ وقال سبحانه : ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾⁽³⁾ ولن يؤتي المال على حبه ، ولن يطعم الطعام على حبه إلا من كان راكعاً له ، يؤثر ما عنده على ما في يده ، فما عند الله خير وأبقى ، وقال - سبحانه - : ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ﴾⁽⁴⁾ . خرج النبي - ﷺ - من مكة وهي أحب بلاد الله إلى نفسه ، وما كان ذلك إلا امتثالاً منه لأمر الله - عز وجل - لينشر دينه ، وليكون لدينه دولة هي المدينة المنورة ، وليجاهد في الله حق جهاده .

(1) المؤمنون : 1 - 4 .

(2) البقرة : 177 .

(3) الإنسان : 8 .

(4) الأنفال : 5 .

وقد ذكر العلماء أن الزكاة يخرجها البخيل وكأنه يخرج نفسه من بين ضلوعه ، لكن امتثاله لأمر الله يجعله يخرجها ، وما أطيب أن يتحلّى المكلف بالخشوع لله - عز وجل - في كل عمل يعمل ، فليس معنى الآية الكريمة أن يتصدق المسلم أو يخرج زكاته وهو في حال ركوع .

وقد يقبل ما ذكره الزمخشري من توجيه فيما نسب إلى الإمام عليّ - رضي الله عنه - من الناحية الفقهية ، بأنه عمل خفيف أو يسير لا تبطل بسببه الصلاة ، لكن يجوز أن يكون ذلك - إن صح - في أول الأمر ثم نسخ ، كما كان الكلام جائزاً في الصلاة ، كان الرجل يأتي الصلاة مسبوقاً فيقف إلى جوار رجل ممن سبقه ، ويقول له : كم صليتم ؟ فيرد عليه قائلاً : ركعة أو ركعتين فنهوا عن ذلك ، وكذلك هنا ، فلا يقال : إن ذلك جائز اليوم .

.....

﴿ لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ ﴾ .

يقول الله - عز وجل - : ﴿ يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (1) .

سمعت بعض الناس - وهم كثيرون - يردون على سؤال كل سائل بقولهم : إن الله - تعالى - يقول : ﴿ يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ ﴾ .

وقد استغل أعداء الإسلام مثل هذه الآية خصوصاً في زماننا زمان الضعف في اللغة وغيرها ، فقالوا إن الإسلام ، يحرم السؤال ، فهل دعا بذلك إلى العلم والتحضر .

وليس حتمياً هذا الزعم الخاطيء ، فالله تعالى يقول : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ﴾⁽¹⁾ ويقول ﴿ وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ﴾⁽²⁾ .

وما أكثر ما ورد من سؤال الناس واستفتاءاتهم وذكر الجواب في كتاب الله - تعالى - وفي السنة المطهرة .

والله - عز وجل - يقول : ﴿ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾⁽³⁾ .
إنما المنهي عنه ذلك السؤال الذي لا يراد به العلم وإنما يراد به المجادلة بالباطل ، وإرهاق العالم واستفزازه والسؤال عن كافة الأمور ، وغير ذلك من الأسئلة التي يعرف الناس المقصود من ورائها .

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية أن عبد الله بن حذافة قال للنبي - ﷺ - مَنْ أَبِي ؟ فقال له رسول الله - ﷺ - أبوك حذافة .

وعلمت بذلك أمه ، فقالت له : بئس الابن أنت ما الذي أخبرك أن أمك لم تخطئ في جاهليتها أتفضح أمك بين الناس ؟!

فقال لها : ما قصدت ذلك ، وإنما أردت أن ينسبني إلى أبي ، ولو نسبني إلى حمار لا نتسبت إليه .

(1) البقرة : 219 .

(2) البقرة : 222 .

(3) الأنبياء : 7 .

نعم هناك سؤال تكون إجابته سيئة ، فصدق الله ﴿إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْوِكُمْ﴾⁽¹⁾ وهناك سؤال تكون إجابته سارة للسائل ، وربما للمسئول ، وما أشد حاجة الأمة إلى السؤال عن التقنيات ، وعن خطط الدول المتقدمة التي نهضت بعد أن وثبت من عثرتها ، وقد كنت أعددت دراسة من زمن يربو على عشرة أعوام كان عنوانها وموضوعها النبي - ﷺ - يسأل ، نشر منها أجزاء في مجلة «الأهرام العربي» ، أثبت فيها أن النبي - ﷺ - كان يسأل سؤال من يبحث أصحابه على طلب العلم «ألا أدلكم؟» «هل أدلكم؟» ، «أتدرون من المفلس؟» ، فالسؤال ينشط المسئول ويوقظ فيه الرغبة في المعرفة ، كما كان - ﷺ - يسأل والجواب عنده ، فيدخل في هذا الباب وفي غيره كسؤاله إياهم عن شجرة كالمسلم ، لا يسقط ورقها وهي النخلة ، كما كان - ﷺ - يسأل ليعرف كسؤاله العجوز عمن غرس الحائط⁽¹⁾ ، مسلم أم غير مسلم فلما قالت : مسلم يا رسول الله ، سر بذلك سرورًا عظيمًا ، وقال : مَنْ يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا فيأكل منه إنسان أو حيوان ، أو طير إلا كان له به صدقة .

وتنوعت الأسئلة في خطابه - ﷺ - كما تنوعت في أساليب القرآن الكريم ، فكيف يظن عاقل أن للإسلام موقفًا من السؤال ، وأنه يدعو إلى السمع والطاعة التي يطلقون عليها «عمياء» وهي والله عين البصيرة ؛ فقد قال - ﷺ - إنما الطاعة في المعروف ، والإسلام كله دين المعروف .

(1) الحائط : البستان .

﴿ رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ﴾ .

يقول الله - تعالى - : ﴿ رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾⁽¹⁾ .

جرى هذا الدعاء - مع الأسف - على ألسنة الخاصة والعامة يظنون أنه دعاء خير ؛ لوجود كلمة «فتح» كأنهم يفهمون أن معنى الآية : اللهم افتح علينا وعلى قومنا ، أو افتح لنا ، ولقومنا ، وهذا خطأ كبير .

فمعنى الآية : اللهم افصل بيني وبين قومي ، إما أن تعذبهم وإما أن تعذبني ، إما أن تخسف بهم الأرض وإما أن تخسف بي .

وقد ورد ذلك في القرآن الكريم مرتين الأول على لسان شعيب - عليه السلام - في سورة الأعراف ، بعد أن دعا قومه إلى الله ، وصدوا عن دعوته وهددوه ومن آمن معه بإخراجهم من قريتهم أو أن يعودوا إلى ملتهم ، فقال - عليه السلام - : ﴿ رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ فانظر ماذا قال الله - تعالى - بعد آية واحدة من هذا الدعاء ؟ قال عز وجل : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ * الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ * فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾⁽²⁾ .

فتح الله - تعالى - إذاً بين شعيب - عليه السلام - وأتباعه من المؤمنين ، وبين الذين كذبوه ، فأخذتهم الرجفة .

(1) الأعراف : 89 .

(2) الأعراف : 91- 94 .

والثانية في آيات سورة الشعراء على لسان نوح - عليه السلام - حين قال تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوِّمِي كَذَّبُونِ * فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحًا وَيَجْنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَأَنْجَيْنَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (1).

دعا نوح - عليه السلام - قومه كما جاء في سورة نوح ليلاً ونهاراً ، فلم يزددهم دعاؤه إلا فراراً ، فلما كذبه دعا الله - تعالى - بهذا الدعاء : ﴿ فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحًا وَيَجْنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فاستجاب الله دعاءه وقال كما جاء في الآيات السابق ذكرها ﴿ فَأَنْجَيْنَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴾ أي فتح الله بمعنى حكم وفصل ، فكانت النجاة للمؤمنين ، وكان الهلاك للمكذبين الكافرين فمن فينا يجب أن يفعل الله - تعالى - بقومه هذا ؟

لقد سمعت رئيس مصر السابق حسني مبارك يقول : ﴿ رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ (2) .

فالمني ذلك يومها ، وقلت : إن الذي كتب للرئيس خطابه وكتب فيه هذا الدعاء بعيد عن الفقه ، ولو أن الدين عظيم عند الرؤساء لاستدعوا أستاذًا في التفسير أو شيخ الأزهر ، وكان وقتها أ. د/ محمد سيد طنطاوي وهو أستاذ التفسير قبل أن يتولى مشيخة الأزهر ، وعرض عليه هذا الدعاء ؛ ليبيد رأيه ، وأنا على يقين أنه كان سيقول له . لا تقل هذا ، قل : اللهم افتح علينا وعلى قومنا ، أو قل : ربنا

(1) الشعراء : 117 - 122 .

(2) الأعراف : 89 .

لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ؛ لأن هذا الدعاء معناه أنك تسأل الله أن يفصل بينك وبين قومك .

فلما قامت ثورة 25 يناير 2011 تذكرت تلك الخطبة التي ورد فيها هذا الدعاء ، وقلت : سبحان الله فكأن أبواب السماء كانت مفتحة يومئذ ، وقد فتح الله بين حسني مبارك وبين شعبه الذي أجبره على التخلي عن منصبه ، والله المستعان ولا شهاة ، إنما هو الدرس الذي جاء في سياقه أن رجلاً دعا على دابته باللعنة ، فسمعه النبي - ﷺ - فقال : « لا يمش في ركبنا ملعون » .

وجاء في رواية أن الله قد استجاب دعاءه فيها ، كما وردت روايات متعددة ، ورد فيها النهي عن الدعاء على النفس والولد والدواب عسى أن تكون ساعة إجابة وروى البخاري في صحيحه قول النبي - ﷺ - : « لا يتمنين أحدكم الموت » وفيه وفي غيره قول رسول الله - ﷺ - لا تتمنوا لقاء العدو ، وحين زار رسول الله - ﷺ - أعرابيا ، وقال له طهور إن شاء الله ، لا بأس عليك ، قال : طهور ؟ ! ، بل هي حمى تفور ، على رجل كبير ، تزيره القبور ، قال - ﷺ - فنعم إذا ، فمات من غده .

وقد قال الله - عز وجل - : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانِ أَمْرٌ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ ⁽¹⁾ ومن تدبر القرآن الكريم أن يفهم المسلم أن قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ معناه افصل يا رب بيننا ، وأهلك الظالم منا ، ونج المظلوم ، ولا شك أن هذا ليس مراد من يدعو بهذه الآية .

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ﴾ .

يقول الله - تعالى - : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾⁽¹⁾ .
رأيت أمماً من الناس يرددون هذه الآية عند المجالس المعروفة بالعرفية ،
ورأيت بعض العلماء يفسر العرف على هذا النحو ، وهذا خطأ ، فالعرف هو
المعروف الجميل لا العرف الذي تعارف عليه الناس ، فهذه ورقة أخرى ، فيها أن
العرف منه جميل ومنه فاسد وما أكثر الأعراف الفاسدة ، فكيف يحمل كتاب الله على
عرف فاسد ، يضيع الحقوق ، ومنها الصلح الصوري القائم فقط على تقبيل الرءوس .
وعدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشر ، بعدها إن لم تكن حاملاً يضع
زواجها . وعدتها في عرف بعض الناس سنوات .

يقول الرازي⁽²⁾ : وأمر بالعرف أي بإظهار الدين الحق ، وتقرير دلائله .
ويقول الطبري⁽³⁾ : «قد أمر الله نبيه أن يأمر عباده بالمعروف لا ببعض معانيه
(دون بعض) ويقول الآلوسي⁽⁴⁾ : «وأمر بالعرف أي بالمعروف المستحسن من
الأفعال» .

وفي حاشية الجمل على تفسير الجلالين : «وأمر بالعرف : يعني وأمر بكل
ما أمرك الله به ، وهو كل ما عرفته بالوحي من الله - عز وجل - وكل ما يعرف في
الشرع حسنه»⁽⁵⁾ ، ويقول البيضاوي⁽⁶⁾ : «وأمر بالعرف : المعروف المستحسن
من الأعمال» .

(1) الأعراف : 199 .

(2) التفسير الكبير : 7 / 407 .

(3) تفسير الطبري : 9 / 166 .

(4) روح المعاني : 6 / 435 .

(5) تفسير الجلالين : 2 / 221 .

(6) تفسير القاضي البيضاوي : 4 / 247 .

ومما سبق يتبين لنا أن العرف هو ما عرفه الشرع ، والشرع لا يعرف إلاً الجميل المستحسن من الأفعال وقد ورد في كثير من كتب التفسير أن رسول الله - ﷺ - سأل عن هذه الآية جبريل - عليه السلام - فقال أسأل ربي ، ثم قال : أن تعطي مَنْ منعك وأن تصل من قطعك ، وأن تعفو عمن ظلمك . وقد ذكرت ذلك لأبين فكرة مهمة ، وهي أن هذا من العرف الذي لا شك يتعارض مع أعراف الناس الذين يقولون : راعني قيراطاً أراعك قيراطين وترشني بالماء أرشك بالدم ، فأبي العرفين أحق بأن يُتَّبَعَ ويؤمر به ؟

.....

﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ .

يقول الله - عز وجل - : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ⁽¹⁾ عجيب حالنا ؛ حين نضبط المذياع على إذاعة القرآن الكريم ، وينبثق منه صوت القارئ ، ونحن لا نسمع له ، ولا ننصت .

وعجيب حالنا ، حين نفعل ذلك ، في سياراتنا ويحدث بعضنا بعضاً ، والقارئ يتلو ما تيسر من آيات الله ، وكأنه يقرأ لقوم آخرين .

وعجيب حالنا ، حين نفعل ذلك في محالنا في الأسواق ؛ هذا يخرج من محله صوت قارئ في سورة البقرة ، وذاك يخرج من محله صوت قارئ آخر في سورة الحاقة ولا أحد يستمع إلى شيء ، تشويش .

وكذلك ذلك الرجل الذي خرج على المعاش وفتح مسجد حيه في الثانية صباحاً قبل الفجر بساعة ، ووضع مكبر الصوت على المذياع ، ولا أحد يستمع لكتاب الله .

أليس في ذلك انحراف عن معنى قوله - تعالى - : ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ .

قارئ القرآن في كل مكان ، ولا أحد يستمع ، ولا ينصت ربة البيت مشغولة بشئون بيتها ، وطبخها وغسيلها والمذياع كأنه يسمع آخرين .

والتاجر في محله ، يحكي مع هذا ، ويضرب صبيه ، ويبيع سلعته ، ولا يستمع لشيء ، من القرآن الكريم كل هؤلاء يعتقدون أن ذلك من باب البركة .

استمع النبي - ﷺ - إلى صوت قارئ ، وصل إليه ، فقال : يرحمه الله ، أذكرني آية كذا وآية كذا .

معنى ذلك أنه - ﷺ - استمع إلى صوت بعيد ، أي أنصت ؛ لأن الإنصات استدعاء الصوت من بعيد .

وهذا يؤكد لنا جانباً من جوانب خُلقه - ﷺ - حيث كان خلقه القرآن ، والقرآن يقول : ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ .

فهل استمع أحدنا إلى الصوت المنبعث من بيت جاره ، وتذكر معه الآيات فضلاً عن تدبرها أم انشغل عنه ؟!

لا شك أنه لا يستمع ولا ينصت إلا من رحمه الله - عز وجل - لكن السواد الأعظم من الناس مشغولون عن ذلك ؛ لذلك كان من المعروف ، ومن الموعظة الحسنة أن تقول لمن قارئ القرآن الكريم في بيته اخفض الصوت حتى تسمع أنت ، ولا ترفع صوت المذياع ، فتؤثم غيرك المشغول بأعماله وأعبائه ، وتقول للأخ الذي خرج على المعاش ، وانشغل بالمساجد ، زادك الله حرصاً على الطاعة ، وليس من الطاعة أن تكبر الصوت والناس نيام ، فحقهم عليك أن ترفع الأذان فقط من خلال

مكبر الصوت ولا تشوش على غيرك ، ويشوش عليك غيرك فقد قال الله - تعالى - :
﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ 》⁽¹⁾ .

ولا شك أن الذين يرتكبون ذلك يظنون أن القرآن الكريم بركة ، وهو كذلك ، ولكن ليس على هذه الطريقة ، فالبركة في هديه وكونه المنبع الرشيد لحياتنا ، ولن تتحقق البركة بإطلاق الأصوات ونحن عنها مشغولون ، فلا بد من الاستماع له والإنصات فهذا هو الحق .

.....

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ 》 .

يقول الله - تعالى - : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ 》⁽²⁾ .

قال العلماء : ما كان الله ليعذب قومًا عذاب استئصال ما دام نبينهم بين أظهرهم ، وفيه إشعار بأنهم معرضون للعذاب إذا هاجر عنهم .

وقيل إن الكفار كان فيهم مسلمون ، يستغفرون وبسبب هؤلاء لم يعذب الله الكفار⁽³⁾ .

وقد رأيت كثيرًا من الناس بينهم معنى الاستغفار على النحو الذي يفهم به معنى ذكر الله - عز وجل - أن يقول : أستغفر الله العظيم مائة مرة ، وألف مرة ، باللسان وحده ، والاستغفار معناه طلب المغفرة من الله - عز وجل - وأول

(1) الإسراء : 110 .

(2) الأنفال : 33 .

(3) انظر الكشاف : 156 / 2 .

ضروب الاستغفار ، وأول مراحلها : الإيمان بالله وحده ، وإخلاص العمل له ،
ألست ترى قول نوح - عليه السلام - : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ
غَفَّارًا ﴾⁽¹⁾ فهل تظن أنه - عليه السلام - قال لقومه الكافرين : قولوا : نستغفر الله
العظيم ، أم أن معناه آمنوا بالله ؟!

والدليل على ذلك ما جاء في أول السورة : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ
انذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ يَنْقُومِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنْ
اعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا * يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾⁽²⁾ .

فمن آمن بالله - تعالى - واتبع نبيه فقد استغفر ، والله يغفر له .

وَمَنْ أَصْلَحَ وَاتَّقَى : ﴿ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾⁽³⁾
فقد استغفر .

وَمَنْ آمَنَ وَهَاجَرَ وَجَاهَدَ بِمَالِهِ وَنَفْسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ اسْتَغْفَرَ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ
آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَحِيمٌ ﴾⁽⁴⁾ .

وَمَنْ لَزِمَ حُدُودَ اللَّهِ - تعالى - فِي الْمَوَارِيثِ ، وَأَعْطَى كُلَّ وَارِثٍ حَقَّهُ ، فَقَدْ
اسْتَغْفَرَ اللَّهَ : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾⁽⁵⁾ .

(1) نوح : 10 .

(2) نوح : 1 - 4 .

(3) النساء : 129 .

(4) البقرة : 218 .

(5) النساء : 13 .

أما الذي عصى الله ورسوله ، وتجاوز حدود الله في المواريث فظلم إخوته أو غيرهم من الورثة ، فهو مهدد بالعذاب المهيّن ، وإن استغفر باللسان ألوف المرات ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾⁽¹⁾ .

ومن تاب من ذنبه ، وعمل عملاً صالحاً بعد توبته فقد استغفر الله - تعالى - : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾⁽²⁾ .

وهكذا ، كان من سلك سبيلاً راشداً في طاعة الله - تعالى - ورسوله - ﷺ - فقد استغفر الله ، أي طلب مغفرته ، ألسنت ترى الحديث الصحيح : « مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ » .

وماذا يبتغي المستغفر غير الجنة ؟ معنى ذلك أن طالب العلم يستغفر الله - عز وجل - بطلبه .

وفي البخاري يقول النبي - ﷺ - : « اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ » .

فمن تصدق - ولو بشق تمر - فقد استغفر الله - عز وجل .

وقد روى الإمام ابن أبي جمرة في كتابه (بهجة النفوس) قول رسول الله - ﷺ - : « مَصَانِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ الشُّوْءِ » .

فما كان الله - عز وجل - ليعذب مَنْ يستغفره بالعمل الذي يرضيه ، ولا بأس باستغفار اللسان مع العمل ؛ فهو كما ذكرت في ذكر الله - تعالى - من باب ترطيب اللسان ، أما أن يكون الذكر والاستغفار مجرد كلمات فهذا ليس من الذكر ، ولا من الاستغفار .

(1) النساء : 14 .

(2) الفرقان : 70 .

﴿ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ﴾ .

يقول الله - تعالى - : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُخْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ⁽¹⁾ .

رأيت كثيرًا من الناس يفهمون هذه الآية على ذم الكثر والمال ، والتكالب على الدنيا ، وأن من جمع مالا سوف يكوى به في نار جهنم .

وباب ذم الدنيا والأموال معروف عند طائفة معينة يطلقون على أنفسهم «الزهاد» وليس معنى الزهد العزوف عن الدنيا ، وتخليقها - على حد تعبيرهم بالثلاث ، طلاقًا بلا رجعة ، وإنما معناه أن تجمع الدنيا بما فيها ، شريطة ألا تصل إلى قلبك ، أن يكون معك ، فتؤثر غيرك على نفسك ، وتقنع باليسير ولكن على أن يكون معك الكثير .

ونحن مأمورون بالغنى لا الفقر ، وبالعمل لا الكسل ، وبالعامل من أجل الزكاة ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾ ⁽²⁾ أي يعملون عملاً خاصاً من أجل أن يكونوا من المزكين ؛ فاجمع كنوز الأرض من وجه حلال ، وأدّ زكاتها ساعتها لن تكون من الكانزين ، الذين مصيرهم ﴿ يَوْمَ يُخْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ .

(1) التوبة : 34 ، 35 .

(2) المؤمنون : 4 .

قال الزمخشري⁽¹⁾ : « قيل نسخت الزكاة آية الكنز ، وقيل : هي ثابتة ، وعن النبي - ﷺ - ما أدّى زكاته فليس بكنز ، وإن كان باطنا ، وما بلغ أن يزكى فلم يزك فهو كنز ، وإن كان ظاهراً ، وعن عمر - رضي الله عنه - أن رجلاً سأله عن أرض له باعها ؛ فقال : احرز مالك الذي أخذت احفر له تحت فراش امرأتك ، قال : أليس بكنز ؟ قال : ما أدى زكاته فليس بكنز .

وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - كل ما أديت زكاته فليس بكنز ، وإن كان تحت سبع أرضين ، وما لم تؤد زكاته فهو الذي ذكر الله - تعالى - وإن كان على ظهر الأرض . ثم ذكر حديث من ترك صفراء أو بيضاء كوي بها ، وأن رجلاً توفي فوجد في مِثْرِهِ دينار ؛ فقال رسول الله - ﷺ - كية ، وتوفي آخر فوجد في مِثْرِهِ ديناران ؛ فقال : كيتان ، ثم قال : قلت : كان هذا قبل أن تفرض الزكاة ، فأما بعد فرض الزكاة فالله أعدل وأكرم من أن يجمع عبده مالاً من حيث أذن له فيه ، ويؤدي عنه ما أوجب عليه فيه ثم يعاقبه ، ولقد كان كثير من الصحابة كعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة بن عبيد الله ، وعبيد الله - رضي الله عنهم - يقتنون الأموال ، ويتصرفون فيها ، وما عابهم أحد ممن أعرض عن القنية ؛ لأن الإعراض اختيار للأفضل ، والأدخل في الورع والزهد في الدنيا ، والاقتناء مباح ، موسع ، لا يُدْمُ صاحبه ، ولكل شيء حد ، وما روي عن عليّ - رضي الله عنه - : أربعة آلاف فما دونها نفقد ، فما زاد فهو كنز كلام في الأفضل » .

وما قاله الزمخشري : « لأن الإعراض اختيار للأفضل » هذا بالنسبة إلى فكرهم ، وليس من باب الضرورة أن يكون الإعراض أفضل ؛ فإن من عباد الله - تعالى - من لا يصلحه إلا الغنى ، ولو افتقر لفسد حاله .

لكن لب القضية يكمن في قوله - رحمه الله - : «وما عابهم أحد ممن أعرض عن القنية» فقد صار المعرضون عن اقتناء الماء اليوم يعترضون ، وتلك هي المشكلة ، تراها في الذين يهجمون على سيارة أصابت طفلاً أو شاة على طريق قريتهم ، ويكسرونها ويضربونه ، لا حبا في الطفل أو الشاة ، وإنما كراهية للغنى وأصحابه ، حتى وإن كان قائد السيارة مجرد سائق ، لا يملك السيارة ، وهذا ليس من الإسلام في شيء ، وخلاصة القول أن مَنْ أدى زكاته من المال ولو زاد على ما جمعه قارون فليس بكنز .

.....

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ .

يقول الله - عز وجل - : ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ * الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ⁽¹⁾ .

أليس عجبا أن نكتب هذه الآية على الأضرحة ، وأن نوقفها على أصحاب الأضرحة ، مع أن الله - عز وجل - يقول ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ فوسّع ربنا ، وضيق الناس كالذي جاء رسول الله - ﷺ - وعرض عليه الإسلام ، فدخلته البهجة ؛ فقال : اللهم ارحمني ومحمدا ولا ترحم معنا أحدا ؛ فقال له - ﷺ - : ضيقت واسعا أو حجرت واسعا .

ولكن هل ضيقنا نحن معنى الولاية بسبب بهجة دخلتنا ، أم بسبب شيء ما في صدورنا ، كأنه نوع أنانية ، أو امتداد لأنانية ، فنحن لا نعترف بالأولياء الرموز ،

(1) يونس : 62- 64 .

وإنما نعتزف بالأولياء الأعلام ، المعروفة أماكنهم ، وأضرحتهم ، ومساجدهم ، نعظمهم ، ونخترع من أجلهم الكرامات ، ولتصق بجدرانهم ، ونتمسح بترابهم إلى غير ذلك مما هو صحيح ، وما هو فاسد .

وأعني بالأولياء الرموز الأولياء الذين لا نعرف أسماءهم ، ولا أماكنهم ، قد يكون منهم حارس عمارة أمين ، وعامل نظافة وامرأة صابرة ، وفتاة طاهرة ، وفلاح مجاهد ، وأستاذ جامعة موسوعة في العلم ، لا يعوق طلابه ، ولا يرتشي ، ولا يرهق أبناءه في شراء الكتب التي قام بتأليفها ، وطبيب يحتسب عند الله عمله ، ولا يتخذ من المستشفى الذي يعمل فيه معبراً إلى عيادته الخاصة ، ولا يفتح رأس مريض ، وهو يعلم أنه ليس في حاجة إلى إجراء تلك العملية ، لكنه أوهمه بضرورة إجرائها لما رآه غنيا قادراً على دفع المبلغ الكبير أخبرني بذلك أحد أساتذة المنخ والأعصاب ، وقد يكون هذا الوالي أمين مخازن في شركة ما ، أو في مؤسسة ما ، وهو فعلاً اسم على مسمى ، أمين على الأوراق ، وتلك وظيفته وأمين على الواقع . حيث لا يغفل ﴿ وَمَنْ يَغْفُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾⁽¹⁾ ولا يخون ، ولا يهادي أهله وأصدقائه مما هو أمين عليه .

ما لا يحصى عددهم من أولياء الله الصالحين نكرهم ولا نعرفهم ، ونسلك منهم ، ولا ندنو من ذكرهم ؛ لأننا توقفنا عند أصحاب الأضرحة ، دون سواهم فمن يزاحمهم ، ومن يكون امتداداً لهم إلا من قام بشرف الخدمة في بلاطهم ، أي في أضرحتهم .

(1) آل عمران : 161 .

فهؤلاء هم الورثة للولاية ، وهذا كما ذكرت فيه تضيق لواسع والله در الزمخشري⁽¹⁾ - رحمه الله - حيث قال ﴿أَوْلِيَاءَ اللَّهِ﴾ : الذين يتولونه بالطاعة ، ويتولاهم بالكرامة ، وقد فُسر ذلك في قوله ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ فانظر إلى قول العلامة «وقد فسر ذلك في قوله : ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾» . فلماذا يصبر كثير من الناس على عدم قبول هذا التفسير الإلهي ، ويقبلون فقط التفسير الموروث وهو أولئك النجوم المعروفون في القرى والمدن ، في شرقي البلاد وغربيها .

وقد قال رحمه الله - في هذا الموضوع - : «وعن سعيد بن جبير أن رسول الله - ﷺ - سئل : مَنْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ ؟ فقال : هم الذين يذكر الله برؤيتهم ، يعني السمات والهيئة وعن عباس - رضي الله عنهما - الإخبات والسكينة ، وقيل : هم المتحابون في الله ، وعن عمر - رضي الله عنه - سمعت النبي - ﷺ - يقول : إن من عباد الله عباداً ما هم بأنبياء ، ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله ، قالوا : يا رسول الله ، خبرنا مَنْ هم ؟ وما أعمالهم ؟ فلعلنا نحبهم قال : هم قوم تحابوا في الله على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس ، ثم قرأ الآية ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ . وهؤلاء كثيرون بحمد الله فكيف تضيق ما وسعه الله .

﴿ وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا ﴾ .

يقول الله - عز وجل - : ﴿ وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۖ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ (1) .

وفيها أيضًا على لسان هود - عليه السلام - : ﴿ وَنَقُومَ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مَجْرِمِينَ ﴾ (2) .

وفي سورة الطلاق يقول الله - تعالى - : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ * وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ ۗ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ (3) .

وفيها يقول الله - تعالى - : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ ۖ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾ (4) .

وفي سورة نوح يقول الله - عز وجل - : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَبُعِثَ كُودٌ بِأَمْوَالٍ وَيَنْبَغِي أَنْ يُجْعَلَ لَكُمْ جَنَّاتٌ * وَيَجْعَلَ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾ (5) .

(1) هود : 3 .

(2) هود : 52 .

(3) الطلاق : 2 ، 3 .

(4) الطلاق : 5 .

(5) نوح : 10 - 12 .

جميع هذه الآيات وغيرها على خلاف ما عليه كثير من الناس الذين يعلنون أن الإيمان والتقوى سبب في شقاء المؤمن وتعاسته وسوء أحواله ، ألست ترى إلى قول الناس إن فلانا يعيش أسعد حياة ؛ لأنه مفرط في أمر دينه ، يعرف من أين تؤكل الكتف ، وهو يلعب بالأوراق الثلاثة وهو كذا ، وكذا ، وكذا .

وانظر إلى فلان ، كم يشقى ويكابد ويعاني ، الأمرين ، والثلاثة ، وهو في ضيق من العيش ، وشدة ، وغير ذلك ، إنه لم يدخل ولدًا من أولاده مدرسة أجنبية ولم يشتر سيارة ، ولم يتنزه يومًا في متنزه كما يفعل كثير من الناس ، إلى آخر مظاهر البؤس والشقاء ، أتدري لماذا ؟ لأنه ملتزم ، لا يرضى بالحرام ، ولا يغضب الله - عز وجل - إنه يتقي الله !

وكم من صادع بهذا الأمر ، يقول : لقد عانيت في حياتي أشد معاناة ، وقاسيت ، وكذا وكذا ؛ وكان أمامي مكان الفرصة الواحدة كثير ، رُميت تحت قدمي الألوف المؤلفة ، وعرضت عليّ الكنوز ، والمناصب وغيرها ، لكنني أبيت ، ورفضت .. جميع ذلك خوفًا من الله - عز وجل - .

إلى درجة أنه كاد يستقر في أذهان الناس هذا المعنى وهو أن التقي شقي ، وأن الفاجر سعيد .

ومنهم مَنْ يذكر حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - الذي رواه السيوطي في الجامع الصغير «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» .

وقد شرحه العلامة المناوي في موسوعته «فيض القدير» ، وذكر قصة ابن حجر - رحمه الله - حين لبس أبهته ، ومضى إلى القضاء في موكبه ، ومَرَّ بالسوق ، فخرج إليه منها يهودي يعمل في الزيت ، وهو رث الهيئة ، فاستوقفه ، وسأله عن هذا الحديث : كيف تكون الدنيا سجنه على ما هو فيه ، وجنة مثله على ما هو فيه ؟!

فأجابه ابن حجر بقوله : ذلك يوم القيامة ، إذا أدخلني الله الجنة عرفت أنني كنت في الدنيا في سجن على ما تراني عليه ، وإذا أدخلك الله النار عرفت أنك كنت في الدنيا في جنة على ما أنت فيه ؛ فأسلم اليهودي .

إننا يجب أن نعتقد أن الله - عز وجل - يكرم المؤمنين ويرزقهم رزقا حسنا ، وذلك صريح القرآن الكريم وهو بلسان عربي مبين ، كيف يقول الله - عز وجل - ﴿ وَهَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾⁽¹⁾ ونقول نحن محروم ؟! وقد قرأت آية الأنفال حيث يقول الله - فيها - : ﴿ وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَزَوَّجَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾⁽²⁾ وبدا لي في نورها أن الفقر يجب أن يكون في حياة المؤمنين ذكريات ، حالة ، لا حياة بدليل هذه الآية الكريمة ، التي يقول فيها ربنا - تعالى - للمسلمين ﴿ وَأَذْكُرُوا ﴾ هذا ما جعلني أقول إنه في حياة المسلمين ذكريات ، وحالة ، مروا بها . أو سوف يمرون بها ، عرض لا يدوم ، وكأنه من الابتلاء ، والدنيا بكل ما فيها ابتلاء ، والابتلاء كما نعلم بشيء من الخوف والجوع والنقص من الأموال والأنفس والثمرات كذا قال الله ربنا في سورة البقرة ، لكنه ليس استصلا للنعم ، ولا ذهابا بجميع الخيرات ، فذلكم العذاب لا الابتلاء .

وفي الابتلاء يقول الله - تعالى - : ﴿ وَنَشِيرِ الصَّيْرِ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾⁽³⁾ وما عسى أن تظن بامرئ ابتلي فقال ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾⁽⁴⁾ فقال بشرى ربه

(1) الطلاق : 3 .

(2) الأنفال : 26 .

(3) البقرة : 155 ، 156 .

(4) البقرة : 156 .

الكريم هل تظن به إلا كل خير ممن بيده الخير ؟! ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (1).

أما أن يعيش المسلم حياته كلها في فقر وبؤس وشقاء فهذه مسألة أخرى ، التحقيق فيها أنه هو الذي اختار ذلك لنفسه ، وارتضاه منهجا لحيثه ، فكسل ولم يعمل ، وتواكل ولم يتوكل ، ونام ، ولم يقدم ، ولعبت به الأهواء والمذاهب المنحرفة حتى ظن أن هذا حظه ومكتوبه ولا مفر منه ، وهو خلاف ما عليه واقع الدين ، الذي يدعو إلى الكسب ، والسعي والابتغاء من فضل الله ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ (2) وفضل الله عظيم ، ورحمته أوسع من أن يتصور لها إنسان حدًا ، قال تعالى : ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (3).

ونحن نتأمل قول الله - تعالى - : ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا * وَبَيْنَ شُهُودًا * وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾ (4).

ما قال ربنا - تعالى - كلا كفاه ما أعطيناه ، وإنما قال : ﴿كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾ (5) ، فالدنيا لا تساوي عند الله شيئًا ، ولو كانت تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها جرة ماء .

(1) آل عمران : 26 .

(2) الجمعة : 10 .

(3) المدثر : 11 - 16 .

(4) الأعراف : 156 .

(5) المدثر : 16 .

والذي يغفل عنه كثير من الناس أن الطمع في الله - عز وجل - وواسع فضله ورحمته عين اليقين ، بخلاف الطمع فيما عند الناس والله در القائل من قديم :

الله يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سَوَالَهُ وَبُنَيَّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

ولذا قال الله - عز وجل - : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرَّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝ ﴾⁽¹⁾ فانظر كيف نهانا عن تمنّي ما فضل به بعضنا على بعض ، وأمرنا بسؤاله - عز وجل - من فضله .

فلا تلتفت إلى من يقول : «رضا .. نعمة .. كفاني» وقد روى البخاري في صحيحه أن أيوب - عليه السلام - كان يغتسل ، ونزلت عليه فراشات من ذهب ، فأخذ يجمعها في ثوبه ؛ فقال الله - تعالى - له : ألم أغنك ؟ قال : يا رب لا غنى لي عن مزيد فضلك .

ومن دعاء سيدنا محمد - ﷺ - «اللهم زدنا ولا تنقصنا» .

ومن دعائه الثابت في صحيح البخاري وغيره «اللهم إني أعوذ بك من الفقر» وما كان ينبغي للذين نسبوا الفقر إلى رسول الله - ﷺ - أن يفعلوه .

فقد أغناه الله - عز وجل - وقال : ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾⁽²⁾ وأحل له خمس الغنائم ، ما أحلها لنبي قبله ، والنبي - ﷺ - لم يكن يقول لسائل : لا ، إن وجد عنده حاجته أعطاه ، وإن لم يجدها قال له : ابتع عليّ ، أي اشتر ما شئت ، وعليّ

(1) النساء : 32 .

(2) الضحى : 8 .

_____ الفصل الأول : أخطاء شائعة في تفسير بعض آيات القرآن الكريم

حسابه ، وقد جاء أعرابي بغنم والنبى - ﷺ - في سفر مع أصحابه ، فلما رآه مقبلاً عليهم بغنمه سأله :

- هدية أم بيع ؟

- فقال : بيع .

فاشترى منه - ﷺ - وذبح لأصحابه وحين هاجر - ﷺ - اشترى من أبي بكر - رضي الله عنه - راحلته ، قال السهيلي : لأنه أراد أن تكون هجرته في الله - عز وجل - بنفسه وماله .

وحين بركت ناقته عند مربد لغلّامين من بني النجار قال - ﷺ - لأوليائهما : ثامنوني .

وما استدان - ﷺ - لنفسه ، وإنما كان يستدين للمساكين كما قال ابن عبد البر في التمهيد وعلى ذلك يحمل حديث البخاري « مات رسول الله - ﷺ - ودرعه مرهونة عند يهودي » ما رهنها من أجل شعير لنفسه ، وإنما من أجل مساكين . أكل النبي - ﷺ - الحلواء ، وشرب العسل واللبن وكان يأكل من الشاة الكتف ، ونام على سرير من ساج وهو خشب يصنع في الهند ، ووضع الطيب ، ولبس أجمل الثياب ، وقبل الهدية وأثاب عنها بخير منها ، وقد كان خلقه - ﷺ - القرآن ، والقرآن يقول : ﴿ وَإِذَا حُيِّمُ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ۚ 》⁽¹⁾ .

ولا شك أنه أهدى مَنْ أهداه خيراً مما أهداه ، وقد أعطى أعرابياً إبلاً ردّاً لهدية صغيرة ، ظل يعطيه حتى رضي ، وهو سبب قوله - ﷺ - هممت ألا أقبل هدية إلا من قرشي أو هذلي أو ثقفى ... الحديث .

(1) النساء : 86 .

- وأعطى - ﷺ - رجلاً غنماً بين جبلين فانظر كيف كان العدد .
- وأعطى - ﷺ - رجلاً ضربه بشيء في يده لما أوجعت ناقته رجله الشريفة ثمانين شاة عوضاً عن احتمال تألمه ، وقال له : لعلنا أوجعناك بالأمس .
- وكان - ﷺ - يدخر لأهله قوت سنة ويدخر أسهماً للنواب ، ويشترى بها بقي من خطه بما فتح الله عليه سلاحاً ، وسلعاً للمساكين .
- والثابت أنه - ﷺ - لما فتح الله عليه كان يقول : «مَنْ مَاتَ وَلَهُ مَالٌ فَلِوَرِثَتِهِ ، وَمَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ دَيْنٌ فَأَنَا وَلِيهِ ، وَعَلَيَّ قِضَاؤُهُ» .
- ويبدو - من غير شك - أننا نتبع النبي ونصلي عليه ولا نعرفه حق المعرفة ، بذلك على ذلك ما سبق ذكره من نفي الفقر عنه - ﷺ - وكفاك نوراً وبيانا شافيا قوله - ﷺ - : «لست على هيئتكم ، إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني» .
- وقد سأل سليمان - عليه السلام - رب العرش العظيم ، فقال : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾⁽¹⁾ .
- وقد استجاب الله - تعالى - فسخر له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ، والشياطين كل بناء وغواص ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطُّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾⁽²⁾ وقد قال بعض العلماء : إن النبوة لا تتعارض مع الملك بدليل أن سليمان - عليه السلام - كان ملكاً ، وقد قال الله - عز وجل - : ﴿ أُمِرْتُحْسِدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَآءَاتِهِمْ ۖ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَا ءَالَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴾⁽³⁾ .

(1) ص : 35 .

(2) النساء : 54 .

(3) النمل : 17 .

وقال يوسف - عليه السلام - : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (1) .

وقال موسى - عليه السلام - : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ (2)
قال الله - عز وجل - : ﴿ إِحْدَثُهُمَا تَعْمِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ (3) .

وجاء أباهما ، وقص عليه القصص ؛ فقال له : لا تخف نجوت من القوم الظالمين .

فأي فكر يذهب إلى خلاف ذلك منحرف عن الجادة ، وهو أحد الأسباب المهمة التي أدت إلى تخلف الفرد والأمة .

إنما يكون الفقر نعمة من الله - عز وجل - إذا بذل المرء كل جهد ، وأخلص في عمله ، وأخذ بكل الأسباب ولم يحظ في النهاية بالنتيجة المرجوة التي قد يحصل عليها غيره ، عندئذ يحمد الله - عز وجل - وهو يتلو قوله : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ (4) .

(1) يوسف : 101 .

(2) القصص : 24 .

(3) القصص : 25 .

(4) الشورى : 27 .

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ .

يقول الله - تعالى - : ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾⁽¹⁾ .

يظن بعض الناس وفق ظاهر الآية أن الله إذا أراد أن يهلك قرية أمر المترفين فيها بالفسق ، فيفسقون ، فيستحقون التدمير .

وليس هذا صحيحًا : لأن الله - عز وجل - لا يأمر بالفحشاء ﴿قُلْ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ * قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ﴿⁽²⁾ والله - عز وجل - يأمر بالعدل والإحسان ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ عَ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾⁽³⁾ إنها المعنى الصحيح أنه مجاز ، أي غمرهم الله بالنعم فكانت النعم التي بين أيدي المترفين سببًا في فسادهم ، فكان ما كان من تدمير .

أو أن الله - عز وجل - أمرهم بالحق ، ففسقوا ولم يرتض ذلك الزمخشري حيث قال : «فإن قلت : هلا زعمت أن معناه أمرناهم بالطاعة ففسقوا ؟ قلت : لأن حذف ما لا دليل عليه غير جائز ، فكيف يحذف ما الدليل قائم على نقيضه ، وذلك أن المأمور به إنها حذف ؛ لأن ﴿فَفَسَقُوا﴾ يدل عليه ، وهو كلام مستفيض ، يقال : أمرته فقام ، وأمرته فقرأ لا يفهم منه إلا أن المأمور به قيام أو قراءة ، ولو ذهب تقدير غيره فقد رمت من مخاطبك علم الغيب ، ولا يلزم على هذا قولهم : أمرته

(1) الإسراء : 16 .

(2) الأعراف : 28 ، 29 .

(3) النحل : 90 .

فعصاني ، أو لم يمثل أمري ؛ لأن ذلك مناف للأمر مناقض له ، ولا يكون ما يناقض الأمر مأمورًا به ، فكان محالًا أن يقصد أصلًا ؛ حتى يجعل دالًّا على المأمور به ، فكان المأمور به في هذا الكلام غير مدلول عليه ، ولا منوي ؛ لأن من يتكلم بهذا الكلام فإنه لا ينوي لأمره مأمورًا به ، وكأنه يقول : كان مني أمر فلم تكن منه طاعة ، كما أن من يقول : فلان يعطي ويمنع ، ويأمر وينهى ، غير قاصد إلى مفعول ، فإن قلت : هلا كان ثبوت العلم بأن الله لا يأمر بالفحشاء وإنما يأمر بالقصد والخير دليلًا على أن المراد : أمرناهم بالخير ففسقوا ؟ قلت : لا يصح ذلك : لأن قوله : ففسقوا - يدافعه ، فكأنك أظهرت شيئًا وأنت تدعي إضمار خلافه ، فكان صرف الأمر إلى المجاز هو الوجه»⁽¹⁾ .

ويقول البيضاوي : «أمرنا مترفيها : متنعميها بالطاعة على لسان رسول بعثناه إليهم»⁽²⁾ .

وقد ذكر ما ذكره الزمخشري من الحمل على المجاز .

ورد الشهاب الخفاجي كلام الزمخشري في الموضع السابق الذي أشرت إليه بأن الضد يدل على الضد ، كما أن النظر يدل على نظيره ، كقولهم أمرته فأساء ؛ أي أمرته بالإحسان فأساء ، بقرينة المقابلة بينهما المقتضية بالعقل الدال على أنه لا يؤمر بالإساءة ، كما لا يؤمر بالفسق ، والعقل أن الله لا يأمر بالفحشاء .

فالمنعنى أن الله أمر المترفين بالطاعة ففسقوا وقد قرئ «آمرنا» أي كثرنا ، وقرئ «أمرنا» من الإمارة أي جعلناهم أمراء وسلاطين .

(1) الكشف : 442 / 2 .

(2) تفسير القاضي البيضاوي : 6 / 18 .

وكل القراءات تلتقي عند هذا المعنى ، فما كثرةم الله ليتعاونوا على الفسق ،
وإنما ليتعاونوا على البر والتقوى ، وما جعلهم أمراء وسلطين ليفسقوا وإنما
ليحكموا بين الناس بالعدل .

.....

﴿ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ ﴾ .

يقول الله - عز وجل - : ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِكَ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ
الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾⁽¹⁾ .

يذكر الزمخشري - رحمه الله - أن المراد بقرآن الفجر ، وذكر أنه يجوز أن يكون
وقرآن الفجر ؛ حثاً على طول القراءة في صلاة الفجر ، لكونها مكثوراً عليها ؛ لسمع
الناس القرآن ؛ فيكثر الثواب ؛ ولذلك كانت الفجر أطول الصلوات قراءة⁽²⁾ .

يقصد بذلك - رحمه الله - إلى أن قوله - تعالى - : ﴿ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ ، أي
تشهده الملائكة ، أو كثير من الناس ومن أجل ذلك ذكرت هذه الآية هنا في هذا
العمل لما أصابنا نحن المسلمين من تكاسل عنها إلا في رمضان وحده ، فمعظم
مساجدنا في صلاة الفجر لا تجد فيها صفا أو صفين ، وقد ثبت أن أثقل صلاة على
المنافقين : صلاة الفجر ، وصلاة العشاء ، نعم ، يسهر كثير من المسلمين حول
التلفاز ، وحول الشات ، وفي منتديات إلى قبيل الفجر ، وينامون عنده ، والنوم
عنده يخلو في العيون ، ولا يتغلب عليه إلا من أخذ حظه من النوم بالليل ، فارتاح

(1) الإسراء : 78 .

(2) انظر : الكشاف : 2 / 462 .

بدنه ، وهب إلى الصلاة في همة ونشاط ، وقد روى البخاري وأصحاب السنن والفقهاء حديث عائشة - رضي الله عنها - في صلاة النبي - ﷺ - ركعتي سنة الفجر في خفة وسرعة ، إلى درجة أنها استغربت وقالت : هل صلى بأتم الكتاب ، وما قالوه في سبب ذلك أنه - ﷺ - خفف في النافلة ليطول في الفريضة ، ويؤديها في نشاط ، وهي صلاة الفجر ، وتأكيداً لما قاله جاز الله الزمخشري من طول القراءة في ركعتي الفجر أن أحد الصحابة قال : ما حفظت سورة يوسف إلا من عثمان بن عفان - رضي الله عنه - حيث كان يتلوها في صلاة الفجر .

وقد راجعت حديث البخاري الذي ورد فيه أن النبي - ﷺ - وأصحابه - رضوان الله عليهم - لما ناموا وكانوا على سفر ، أخذهم النوم حتى طلعت الشمس ، وحين عوتب في ذلك بلال - رضي الله عنه - حيث كان مكلفاً - عن رضا - بحراستهم قال : أخذ بنفسي الذي أخذ بأنفسكم . وشعرت بشيء من الفزع إثر قراءتي عبارة «فزع المسلمون» و«أصابهم من الهم ما أصابهم» .

لأن وقت الفجر قد فاتهم ، وصلوها بعد طلوع الشمس أي قضاء ، بأمر رسول الله - ﷺ - وسبب ذلك أن كثيراً من المسلمين والمسلمات لا يفوته وقت الفجر مرة في عمره كما حدث في ذلك اليوم الذي لم يتكرر في مبلغ علمي .

وقلت : سبحان الله ، أحس الناس بالوجع في صلاة فاتهم أول وقتها يوماً وكانوا مجهودين على سفر ، فكيف ذهب منا الوجع وقد فاتنا أول الوقت معظم عمرنا .

والناس يحضرون صلاة الفجر في جماعة في رمضان لأنهم حديثو عهد بسحور ، فهم مستيقظون ، ولو كنا ممن قال الله فيهم : ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾

وَبِالْأَشْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١﴾ لَقَمْنَا دُونَ مَنبِهِ وَدُونَ سَحُورٍ إِلَى صَلَاةٍ قَالَ اللَّهُ فِيهَا ﴿وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَاتِبٌ مَشْهُودًا﴾ (٢).

وقد قرأ النبي - ﷺ - قول بلال في أذان الفجر خاصة «الصلاة خير من النوم» وكم من خير فات المسلمين ، ومنه البكور الذي قال فيه النبي الكريم «اللهم بارك لأمتي في بكورها» .

.....

﴿وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

يقول الله - عز وجل : ﴿وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٣) .

يستدل كثير من الناس الذين بينهم وبين العلم مسافات بعيدة بهذه الآية ونحوها على ظاهرة العلاج بالقرآن يقولون : قال الله - تعالى - : ﴿وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

وقضية العلاج بالقرآن من أهم القضايا التي شغلت الناس في هذا الزمان ، وقد ادعى أناس أنهم بارعون فيها متخصصون ، والكلام فيها كثير ، وأنا أجتهد في الاختصار لنعم الفائدة ، فأقول : إن القرآن شفاء وعلاج ، ولكن ليس على هذا النحو الذي عرفه هؤلاء من قراءة آياته أو بعض سورته على مريض بمرض عضوي ،

(١) الذاريات : ١٧ ، ١٨ .

(٢) الإسراء : ٧٨ .

(٣) الإسراء : ٨٢ .

أو نفسي فإذا به يفيق ويذهب ما به من علل ، أو يتحدث الجان الذي لبسه بلغة لا يفهمها الناس ، وإنما يفهمها هذا الذي وجد رزقه في مثل هذا العمل غير الصحيح ، إنما معناه علاج لقضايا الحياة : ﴿ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ ﴾⁽¹⁾ .

يقول الزمخشري « كل شيء نزل من القرآن فهو شفاء للمؤمنين يزدادون به إيماناً ، ويستصلحون به دينهم فموقعه منهم موقع الشفاء من المرض ، وعن النبي ﷺ - « من لم يستشف بالقرآن فلا شفاء له » ولا يزداد به الكافرون إلا خساراً ، أي نقصاناً لتكذيبهم به ، وكفرهم كقوله - تعالى - : ﴿ فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾⁽²⁾ .

ماذا يقول الناس في هذا التفسير ؟ إنه لا يرضي - مع الأسف - كثيرًا منهم ، وفي ذلك خطر عظيم ، إن ما ذكره الزمخشري في قوله « فموقعه منهم موقع الشفاء من المرض » يدل على المجاز ، لكنهم يريدون ذلك حقيقة ، فإذا ضمنت إلى ذلك قول النبي ﷺ - : « تداووا عباد الله » وتوجيهه صاحبه سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - حين مرض إلى خبير في الطب هو الحارث بن كلدة ، وكان يومئذ مشركًا عرفت أن هذا الدين دين علم ، بريء من الدجل وصنوفه وأشكاله ، والله - عز وجل - يقول : ﴿ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ ﴾⁽³⁾ والعلماء في تفسيرها يذكرون أن القرآن شفاء لما في الصدور من الشك والريب ، لا من السعال والربو ، وشتى أمراض الصدر المعروفة .

والقرآن الكريم كتاب هدى ، لا كتاب طب ، قال الله - تعالى - : ﴿ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾⁽⁴⁾ .

(1) النساء : 176 .

(2) التوبة : 125 .

(3) يونس : 57 .

(4) البقرة : 2 ، 1 .

ومعنى أن القرآن شفاء على النحو الذي ذكره الزمخشري وغيره من المفسرين الأعلام أنه علاج لقضايا الحياة في التعامل بين الناس على أساس من العدل والرحمة والتسامح ، والعفو والصفح : ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (1) .

قال الصديق - رضي الله عنه - وقد نزلت فيه : بلى أحب أن يغفر الله لي . ففعا عن مسطح الذي خاض في الإفك ، ورجع عليه ما كان ينفق عليه ، أليس ذلك شفاء لما كان في صدره منه ؟!

وحين هم عمر - رضي الله عنه - بأن ينال من رجل أساء إليه فذكره شاب اسمه « الحر » كان قد استأذن لهذا المسيء بقوله - تعالى - : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (2) وقال يا أمير المؤمنين : وهذا من الجاهلين ؛ فهدأت ثورة عمر وعفا وصفح ، أليس ذلك شفاء لما كان في نفسه منه . أي علاج كان قادراً على تهدئة نفس عمر القائدة في هذا الموقف مثل هذا العلاج ؟!

وقد بين الله - تعالى - في كتابه الكريم أحكام شريعته الغراء ومنها المواريث ، والتعامل مع أهل الكتاب ، وما أحل ، وما حرم وهذا عين العلاج بالقرآن ، أما أن يظن أناس أنه بمجرد تلاوته على ذي ورم خصوصاً الخبيث منه - والعياذ بالله - أو على مريض في حاجة إلى إجراء عملية جراحية يوهمه بأنه لا داعي إلى إجرائها فالله الشافي ، وتلاوة القرآن عليه تغنيه فهذا ضلال مبين ، وسعى إلى قتل الناس ولا بأس أن يقرأ المريض القرآن توسلاً إلى الله - تعالى - بكلامه مع أخذ الدواء ، الذي هو أخذ بالأسباب ونحن مأمورون بالأخذ بها ، وما عدا ذلك ؛ فلا يلتفت إليه ، ونسأل الله أن يتوب علينا جميعاً ؛ إنه هو التواب الرحيم .

(1) النور : 22 .

(2) الأعراف : 199 .

﴿ الْحَيْثُ لِلْخَيْثِ ﴾ .

يقول الله - تعالى - : ﴿ الْحَيْثُ لِلْخَيْثِ وَالْخَيْثُ لِلْخَيْثِ وَالْطَّيْبُ لِلطَّيْبِ وَالطَّيْبُ لِلطَّيْبِ ﴾ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ⁽¹⁾ .

توقف معظم الناس على أن معنى هذه الآية في الأزواج ، فالحيث للخيث ، والخيث للحيث ، والطيب للنساء للطيب من الرجال ، والطيب للطيب ، وترتب على هذا التوقف أن بعض الناس يظن بنفسه سوءاً لأن زوجة سيئة ، حدث فتاة مسلمة ، فقالت : نشأت بين والدين رحيمين يطيعان الله ورسوله ، وتخرجت في الجامعة وأنا شابة ملتزمة على النحو الذي أسمعته منك ، أي شكلاً ومعنى وأنا بحمد الله من المصلين ، ما صاحبت زميلاً ، وما أنشأت علاقة مع شاب ، وتزوجت زوجاً تقليدياً - كما يسمونه - واكتشفت بأن زوجي مدمن خمر ، وتارك للصلاة ، ولا يقول في عمل يعمل به غداً إن شاء الله ، يقول : الغرب لا يقولون إن شاء الله ويعملون ، وهو زير نساء ، وفيه وفيه ، فقلت : إنني امرأة سوء بلا شك لأنني لو كنت طيبة لكان حظي من الزواج زوجاً طيباً فالله يقول : ﴿ الْحَيْثُ لِلْخَيْثِ وَالطَّيْبُ لِلطَّيْبِ ﴾ .

وكم يعذبني هذا الإحساس ، إلى درجة أنني هممت أن أشاركه شرب الخمر بالليل ذات ليلة : إذ دعاني إلى ذلك ، وقلت : وما المانع ؟ أأست مثله ؟ إنه زوجي ، فإن كان شرب الخمر من الكبائر والمعاصي وهو يتلذذ به ولا يتوب عنه فهو خبيث ، يجب الخمر ، وهي أم الخبائث ، وأنا مثله خبيثة ، أليست الخبيثات للخبيثين ؟! فلم أعذبه وأنكر فعله ما دمت مثله ؟! ولكن الله عصمني ، وما زالت تلك الفكرة تراودني .

ثم إن الله - عز وجل - يلحق بأهل الجنة أزواجهم وذرياتهم الصالحين : ﴿ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ ⁽¹⁾ قال : ومن صلح فلو كانوا صالحين بالضرورة ما قال الله ﴿ وَمَنْ صَلَحَ ﴾ فقوله هذا يدل على أن من آباء أهل الجنة ومن أزواجهم وذرياتهم غير صالحين ، ولا تزر وازرة وزر أخرى .

.....

أصحاب اليمين

﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْيَمِينَةِ ﴾ .

يقول الله - عز وجل - : ﴿ فَلَا أَفْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَمْتُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ * ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْيَمِينَةِ ﴾ ⁽²⁾ .

انشغل المسلمون بيمين الجارحة إلى حد كبير ، أعني استعمال اليد اليمنى ، وتقديم اليمنى على اليسرى ، والدخول من جهة اليمين ، والأكل باليمين والشرب باليمين ، وشاع دعاؤهم عند ذلك أيضًا ، حيث يدعون قائلين : ادخل فأنت على اليمين جعلنا الله من أهل اليمين .

وهذه اليمين سنة مباركة بلا شك للقادر عليها ، وقد كان أحد الناس قادرًا عليها لكنه قال للنبي - ﷺ - لا أستطيع ، فدعا عليه قائلًا لا استطعت ، وأجيب ، رواه البخاري . وكان النبي - ﷺ - يحب التيامن ويدعو إليه ، لكن أن يتوقف

(1) الرعد : 23 .

(2) البلد : 11 - 18 .

الأمر عند ذلك دون النظر إلى يمين الدين فتلك مأساة ، إن أصحاب اليمين كما جاء في آيات سورة البلد السابقة هم الذين يقتحمون العقبة ، عقبة النفس الأمارة بالسوء ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾⁽¹⁾ فهم الذين يفكون الرقاب وهم الذين يطعمون الطعام يتيماً قريباً قبل غيره ، ومسكيناً بائساً في ضنك من العيش وضيق ، وهم الذين يعملون الصالحات ، وهم الذين يتواصون بالصبر ، ويتواصون بالرحمة ، فإن كنت منهم - وأسأل الله لي ولك أن تكون منهم - فنحن إذاً من أصحاب اليمين ، الذين يقال لهم عند الموت : ﴿ فَسَلِّمْ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾⁽²⁾ .

ومصيرهم بعد الموت : ﴿ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ * وَفُكْهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ * وَفُرْشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾⁽³⁾ .

فينبغي ألا تطغى يمين الجارحة على يمين الدين ، فهي شكل ، ويمين الدين معنى ، والجمع بين الشكل والمعنى مطلوب ، والله الهادي إلى سبيل الرشاد .

(1) الحشر : 9 .

(2) الواقعة : 91 .

(3) الواقعة : 28 - 34 .

الفصل الثاني

«فاعتبروا يا أولي الأبصار»

﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ .

يقول الله - تعالى - : ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ رِيشُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَفَاتَنَهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (1) .

أتأمل هذه الآيات المباركة وأنا أعيش حياة الناس ، وأعرف عن يقين ما عليه الذين يقولون إننا صابرون ، وهم على خور ووهن وضعف ، وذل وانكسار حتى عند قولهم : «إنا صابرون» تسوقها زفرات من صدورهم لونها أسود ، وإن لم تره العين ، لكن يراه القلب الذي يبصر المعاني ، ويرى ما هي عليه من صبغة وهي مع الأسف صبغة سوداء ، لا لون لها إلا السواد وهي تساق وإلى جوانبها حواش ممقوتة من الأنين ، وأصوات أخرى تشبه العويل ، مع الضعف العام الذي نشأ فيهم نتيجة الإحباط النفسي ، والعزوف الذي يتبعه عن الطعام والشراب .

فترى مَنْ يدعي الصبر في تهاوٍ خفيف ، وضعف ظاهر ، وهو على عكس ما جاء في هذه الآيات الكريمة ، التي تثبت أن الصابرين بحق ، لا يضعفون ، ولا يخورون ،

(1) آل عمران : 146 - 148 .

ولا يسكنون في ركن من أركان الحياة ، ولا أقول في ركن من أركان المنزل الذي أضافوا إليه من الكآبة ما جعله غير صالح للسكن ، والمعيشة ، تعدى من أنفسهم ضباب غشي منازلهم ، وأصاب أهليهم ، وجيرانهم ، ومن يعرفونهم كل أخذ حظه بحسب قربه منهم ، أو علاقته بهم ، فمن فقد ولده ، أو فقدت ولدها لبست السواد أبدًا ، وعاشت من بعده حياة هي والعدم سواء ، وقد يكون ولدها شهيدًا مات مصدومًا فجأة .

والشهيد في الجنة ، وقد قالت الرُبَيِّع بنت النضر - رضي الله عنها - للنبي - ﷺ - أنت تعلم منزلة حارثة (ابنها) مني ، وكان قد استشهد في بدر قالت : فإن كان في الجنة أصبر وأحتسب ، وإلا أريتك ماذا أفعل ، أي من الولولة والندب والبكاء فقال لها - ﷺ - إنها ليست جنة واحدة ، بل هي جنان ، وإن ابنك لفي الفردوس الأعلى منها ؛ فصبرت واحتسبت ، فهل لها امتداد في نساء المسلمين ؟!

وترى الرجل يتلى بشيء ، ويخلف الله له بخير منه وما زال يذكر هذا الشيء الذي ابتلي به ، إلى آخر صور الحياة التي بنيت على الصبر ، والله در القائل :

الصَّبْرُ كَالصَّبْرِ مُرٌّ فِي مَذَاقِهِ لَكِنْ عَوَاقِبُهُ أَخْلَى مِنَ الْعَسَلِ

وقد قال الله - عز وجل - : ﴿ إِنَّمَا يُؤْتِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (1) .

وقال عز وجل لرسوله - ﷺ - : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزْرِ مِنْ أَلْسُلٍ ﴾ (2) .

وقد صبر - ﷺ - على أذى المشركين ، واليهود والمنافقين ، والأعراب ، وغيرهم ، وكان خلقه - ﷺ - القرآن ، فما ضعف لما أصابه في سبيل الله وما استكان ،

(1) الزمر : 10 .

(2) الأحقاف : 35 .

_____ الفصل الثاني : فاعتبروا يا أولي الأبصار

بل كان قوي العزيمة ، عظيم الإرادة ، يذكر الصابرين من إخوانه النبيين ، روى البخاري في صحيحه أنه قال - ﷺ - حين أساء أعرابي بين يديه : «رحم الله أخي موسى ، أؤذي بأكثر من هذا وصبر» .

وقد أؤذي الأنبياء والأولياء بأكثر مما أؤذينا فَصَبَرُوا حتى أتاهم نصر الله ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾⁽¹⁾ .

.....

﴿ اذْعُوا رَبُّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ .

يقول الله - تعالى - : ﴿ اذْعُوا رَبُّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾⁽²⁾ .

أبدأ بقول الزمخشري : «العدوان في الدعاء رفع الصوت بالدعاء»⁽³⁾ .

وفي فتح القدير يقول المناوي : «الدعاء بالتلحين لو كان بين يدي ملوك الأرض لردوه ، فما بالنابغ العالمين وملك الملوك» .

والثابت في جميع السنن أن الصحابة كانوا يلحون في الدعاء ، ولا يسمع بعضهم بعضاً .

وفي الصحيح أن الناس حين ارتفعت أصواتهم بالدعاء قال لهم سيدنا رسول الله - ﷺ - اربعوا على أنفسكم ؛ فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً . كل هذا وغيره يبين مدى ما نحن فيه من عدوان كبير حيث صار دعاؤنا سواء أكنا أفراداً أم جماعات

(1) الأحزاب : 21 .

(2) الأعراف : 55 .

(3) الكشف : 83 / 2 .

على نحو من الجهر الذي نعرف ، ومن الألحان التي نعرف وننكر ، وذلك في الصلاة أشنع ؛ حيث يبكي الإمام عن عمد ، ويبكي مَنْ وراءه ، فتتحول الصلاة إلى مناحة ، وتبطل بذلك الصلاة ، أما إذا غلب البكاء المصلي فلا تبطل صلاته .

وظهرت بدعة جديدة ، هي أن رجلاً تخصص في دعاء رمضان ، وجعل لكل سنة دعاءها ، فأنت ترى مرديه يقول بعضهم لبعض : هل عندك دعاء سنة كذا ؟

فأي دعاء في سنة كذا يختلف عن دعاء هذه السنة ؟ وأمر الدعاء سهل لمن وفقه الله - تعالى - وهو كما قال الله - تعالى - في هذه الآية من سورة الأعراف تضرع وخفية والسجع فيه مكروه ، كما قال العلماء ، إذا كان متكلفاً والمرء يدعو بها يخطر على باله في الحرم وفي غيره ، فهو أفضل من أن يمسك بكتاب ، ويقرأ منه الأدعية ؛ لأن الدعاء بها يخطر على البال فيه من الإخلاص ما ليس في غيره .

إنما القضية الكبرى في الدعاء أن يكون للداعي سند يسند عليه دعاءه ، أي دعامة يعتمد عليها هذا الدعاء حتى يستطيع الصعود إلى السماء ، ومن تلك الدعومات أن يكون للداعي رصيد عند الله - عز وجل - بدليل قوله - تعالى - : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ، وَوَهَبْنَا لَهُ ، يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ ، زَوْجَهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ۝ ﴾⁽¹⁾ .

ومن ذلك أن يتوسل إلى الله بسابق فضله ، قال - تعالى - : ﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ۝ ﴾⁽²⁾ .

(1) الأنبياء : 90 .

(2) يوسف : 6 .

وقال - عز وجل - : ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾⁽¹⁾ ومن ذلك أن يدعو الداعي في مناخ النعم ، ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَنصَرِّمُ أَفَ لِكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾⁽²⁾ .

وقد قال الله - تعالى - : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ﴾⁽³⁾ .

فنهانا ربنا - تعالى - عن تمني ما فضل به بعضنا على بعض ، وفي الوقت نفسه فتح باب سؤاله ، فقال : واسألوا الله من فضله ، وفضل الله عظيم ، لو أعطى كل سائل مسألته ما نقص ذلك من ملكه شيئاً ، ومن ثم رأينا سلفنا الصالح يقولون : نحن لا نشتغل بإجابة الدعاء وإنما نشتغل بالدعاء نفسه ، أي بمثل هذه الدعاءات أما الإجابة فيقين ، وليس من فقه الدعاء أن تعتدي فيه برفع الصوت والتباكي وغير ذلك .

(1) مريم : 4 .

(2) آل عمران : 37 ، 38 .

(3) النساء : 32 .

﴿ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ .

يقول الله - تعالى - : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ۚ وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ۝ ⁽¹⁾ .

ارتباط ﴿ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ بذكر العدد ، ﴿ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ﴾ و ﴿ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ من القضايا المهمة ، التي انصرف عنها كثير من المسلمين ، فتخلفوا حين تقدم غيرهم ؛ وذلك أنهم توهموا أن مسألة العدد تنافي البركة ، والبركة إنما تكون في العدد وقد شاع العدد في الكتاب الكريم فكراً مهماً في الكتاب والسنة ، فالقرآن فياض بالعدد ، ﴿ وَادْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۝ ⁽²⁾ وقال تعالى : ﴿ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۚ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ۝ ⁽³⁾ وقال عز وجل : ﴿ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۝ ⁽⁴⁾ وقال تبارك اسمه : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۝ ⁽⁵⁾ وقال عز من قائل : ﴿ لِلَّذِينَ يُؤْثِرُونَ عَلَىٰ آبَائِهِمْ نُسَايَهُمْ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ ⁽⁶⁾ .

(1) التوبة : 36 .

(2) البقرة : 203 .

(3) البقرة : 196 .

(4) البقرة : 184 .

(5) البقرة : 234 .

(6) البقرة : 226 .

وقال عز وعلا : ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَتَّبْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾⁽¹⁾ وفي الآية بعدهما يقول عز وجل : ﴿الطَّلُقُ مَرَّتَانٍ﴾⁽²⁾ وفي الحديث الذي جرى مجرى المثل يقول - ﷺ - «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين» .

وعمد الدين الصلاة ، والصلاة يدخل فيها العدد إلى حد كبير ، لأنها عدد معين من الركعات ، ولا يصح تجاوز ذلك العدد إلا في قَصْرِ الرباعية في السفر ، فإنها تصلى ركعتين فهي تنقل من عدد إلى عدد ، وقد قال الله - تعالى - ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾⁽³⁾ .

وقد خلق الله - عز وجل - الشمس والقمر ، وقال ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّئِينَ وَالْحِسَابِ﴾⁽⁴⁾ .

وقد دعا رجل رسول الله - ﷺ - إلى طعامه ، وسمّى له العدد الذي يأتي معه ، فتبعهم رجل ، فلما وصل الركب إلى بيت الداعي ، قال - ﷺ - له : هذا رجل تبعنا ، فإن شئت دخل وإن شئت رجع ، فقال : بل يدخل يا رسول الله .

قال العلماء : وإنما قال : بل يدخل يا رسول الله لسبب من سببين :

- إما أن يكون قد أعد من الطعام ما يكفيه .

- وإما أنه كان على يقين أن الطعام سوف يكثر ويكفيه ببركة تكثير الطعام بين يديه - ﷺ - .

(1) البقرة : 228 .

(2) البقرة : 229 .

(3) البقرة : 189 .

(4) الإسراء : 12 .

ونحن إلى هذه اللحظة لا ندري كم عددنا ، لا يوجد عدد صحيح برغم وجود مؤسسات للإحصاء ، وقد سمعت وسمع غيري وزير المالية السابق يقول في سياق الضريبة العقارية الملعونة نحن نحتاج إلى وقت من حيث حصر البيوت ، ومعرفة أعدادها . وهذا لسان الحكومة الناطق بما يدل على العجز ، والحكومة العاجزة عن معرفة عدد شعبها لا شك تنحط في تخطيطها ، وميزانيتها ؛ إذ ذلك كله مبني على تلك المعرفة ، إنها فقط حكومة الرد على مَنْ يقول : أين أموالنا ؟! ، بقولها : الزيادة السكانية تبتلع كل مال ، وتحول دون التقدم ، وتعلن رقما هو أقرب إلى مانشيت الصحف منه إلى الواقع والحقيقة .

لا يصح أن يجهل المرء عدد ولده ، ولا عدد سني عمره ، ولا عدد ماله ، فكيف يحصل رزق مجهول ؟! وكيف يعيش هكذا دون أن يتدبر في عام ما لم يتدبره قبل ؟! وكيف يخرج زكاة ماله ؟! والزكاة ركن الإسلام ، وهي مبنية على العدد ، عدد المال وعدد المواشي ، وما تخرجه الأرض ، ونصابها معروف ، يحتاج كذلك إلى عدد . إن الذين يحبون العدد لا يحبون الدين القيم وإن ادعوا أنهم طالبوا بركة ، وما هذه البركة التي يدعون إلا نظام معروف بـ «السهلة» ، وهذا ليس من الإسلام في شيء .

﴿ فَهَمَّ فِي رَبِّهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ .

نوع من الإعاقة النفسية ، وهو التردد ، يقول - تعالى - : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَعِذُّنَاكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآزَلَّتْ قُلُوبُهُمْ فَهَمَّ فِي رَبِّهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ ⁽¹⁾ .

فرق كبير بين أن تتردد ، وأنت في ريب ، انظر كيف جعل الله - عز وجل - الريب ظرفاً للتردد تراه يقول :

أسافر ، لا أسافر .

إن سافرت كانت المخاطر .

وإن قعدت كانت البلايا .

ماذا أفعل ؟ ماذا أفعل ؟

وتقول هي :

أتزوج فلانا ، لكن أمه ليست سهلة .

أم أتزوج فلانا ، لكن يبدو أنه بخيل .

ماذا أفعل ؟ ماذا أفعل ؟

أصلي استخارة !

ولو صلت استخارة ما ذلك بناجح ؛ لأنها تود أن ترى مناماً ، أو تشعر بشيء ، ولن ترى مناماً إلا من قبيل حديث النفس .

ظل متردداً في الزواج حتى وصل إلى الستين ، وضعف بدنه ، وصار لونه شاحباً ، وصار يقول : مَنْ ترضى بي لوجه الله - تعالى - تخدمني ، وتمرضني ، ولي

أخطاء شائعة في تفسير القرآن الكريم
شبابه الذي كان به يتبخر ، ويزهو ويفخر ، ولا يعجبه العجب ظل متردداً ، وهو يقول : ما زال الوقت كافياً .

هذه ، لا ، شكلها غير جميل ، هذه جميلة ولكن أخاها يبدو وكأنه خريج سجون ، هذه طماعة ، هذه كذا ، حتى فات الأوان ، ظل يتردد في ربه يا ليتته تردد في يقينه .

لم يجد زاوية خير ينظر من خلالها إلى جمال كان بلا شك - سوف يجده - لكنه نظر إلى جميع الزوايا البائسة ، فلم يفعل شيئاً .

انظر إلى هذا الشاب ، الذي عرض عليه أكثر من عمل ، يقول : هذا لا يناسبني ، هذا راتبه قليل ، هذا كذا حتى ضاعت جميع الفرص ، والله - عز وجل - يقول : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾⁽¹⁾ .

إعاقه نفسية حتى عند الرؤساء الذين هم بلا شك تحدثهم أنفسهم باعتزال كراسيهم لكنهم في ربه يترددون ، ماذا لو تنازلنا عن عروشنا ؟ كيف نعيش ؟ وأين ؟ وما مصيرنا ؟ وماذا لو بقينا ؟ إن هؤلاء الذين ينادون برحيلنا غير شرعيين ، إنهم أصحاب الفوضى وضد الشرعية ، والنظام ، فنحن الشرعية ، ونحن النظام ونتيجة هذا التردد مزيد من إراقة الدماء ، وانتشار الفساد والمفسدين ، وتخريب البلاد .

إن المتردد مريض يجب علاجه ، وعلاجه يكون بتوجيهه نحو دراسة الأمر الذي هو مقبل عليه ، وقد قال الناس من قديم .

إذا تراحمت عليك الأعمال فابدأ بالأهم ثم المهم . على المتردد أن يعلم الأوليات ، وأن يكون موضوعياً في الفكر ، مجرداً من النزعات الإنسانية ، والميول ، والأهواء الذاتية .

(1) آل عمران : 159 .

وأن يعزم المسألة ، قال تعالى : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾⁽¹⁾.

وقل مَنْ تجده عازما في هذه الأيام على شيء ، كثر المتوكلون كلاما ، ولكنهم قلوا فعلا وعملا ، كما كثر الذاكرون الله - تعالى - والمستغفرون باللسان ، وقل من يذكر الله - تعالى - ويستغفره بالقول والعمل معا !

.....

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ .

يقول الله - عز وجل - : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾⁽²⁾.

نحن اليوم أشد فقرا وحاجة إلى معنى هذه الآية حيث تهدد معنى الولاية الخاصة والعامة ، وصار الناس بلا كبير يتكلم ، فيستمعون إليه ، ويأمر بالمعروف فيطاع ، وينهى عن المنكر ، فيستجاب له .

إن الولاية بين المؤمنين والمؤمنات تكاد تكون منعدمة ، ألا تسمع قول المرء لأخيه : مالك شأن بي . أية علاقة بيني وبينك ؟! وغير ذلك من الكلمات التي صار الناس يسلمون لها ، وبها ، ويقول ثالث : صحيح ، هذا صحيح ، لست أباه ، ولا أخاه ، ولست نسيبه ولا صهره ولا ابن عمه ، ولا ابن خاله ، يعدون ولاية الدم والقرباة وكأنها الولاية الوحيدة ، وحتى هذه الولاية قد كادت تفقد في زماننا ،

(1) آل عمران : 159 .

(2) التوبة : 71 .

ولا أدل على ذلك من زواج البنت عرفياً دون معرفة أبيها وأمها ، وإخوتها ، تنام الليل بينهم عذراء وهي ثيب بالنهار ، فضلاً عن الحقوق ، وسوء المعاشرة للأقارب والقطيعة بين الأرحام من آيات ذلك وحين يقول الله - عز وجل - : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ فقد أثبت - عز وجل - ولاية المؤمن على المؤمن ، ومن مقتضى تلك الولاية ما ذكر في الآية نفسها ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ .

ونتيجة تلك الولاية بهذا المقتضى في قوله - تعالى - : ﴿ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ وما أعظمها من نتيجة معنى ذلك أن المؤمنين والمؤمنات يتواصلون بالصبر ويتواصلون بالحق ، والرحمة ، وطاعة الله ورسوله فإن رأيت تاركاً للصلاة أمرته بالصلاة ، وإن رأيت مهملاً في زكاته أمرته بإخراجها ، وإن رأيت متكاسلاً عن معروف أمرته بالمعروف ، وإن رأيت مرتكباً لمنكر نهيته عن هذا المنكر .

هذا مقتضى الولاية ، وهو كذلك يأمرك بالمعروف وينهاك عن المنكر .

وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ وَالْعَصْرُ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾⁽¹⁾ .

وقد قال الله - تعالى - : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴾⁽²⁾ .

(1) الصبر : 1 - 3 .

(2) البلد : 17 ، 18 .

وقد عرفت أجيال منا هذه الولاية أيام طلب العلم في الأزهر الشريف ، حين كنا في قرينتنا ننادي من هو قريب من سن أبينا بيا أبي فلان ، والتي في مثل سن أمتنا بيا أمي فلانة ، فكان جميع الناس آباء لنا وأمهات وإخوة ، كنا نشعر بهذه الولاية دون أن يعبر أحدٌ عنها بالولاية ، أي كنا نعيش مقتضاها .

وقد أثمرت حقاً فينا ، فكم من منكر تركناه خوفاً من هؤلاء ، فهم حضور إذا غاب والدنا عن العيون ، وكم من أذى دفعوه عنا ، وكم من نداء لهم فيه خيرنا لبينا ، وهكذا .

وكان الشقي من الصبيان إذا بدا منه تمرّدٌ على تلك الولاية ، قال له الفلاح القديم : افعَل ما شئت ، ولي كلام مع والدك ، عندئذ ينتفض ، ويرتدع ، ويرجوه ألا يذكر من ذلك شيئاً لو والده ؛ لأنه كان على يقين أنه سوف يخبر والده فعلاً ، وأن والده سوف يغضب ويثور ، وسوف يصدقه - يبدو أن الناس كانوا في زمان الصدق ، والصدق نور - نعم كان الوالد يصدق مَنْ أبلغه عن ابنه شيئاً ، وكأنه رآه بعينه ، ولا طاقة للولد بحساب والده ، وهكذا تستمر تلك الولاية العامة بين المؤمنين عن خير كثير ، ولّى معظمه بسبب فقد الناس إياها اليوم .

﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

يقول الله - تعالى - : ﴿ثُمَّ نُنَاجِي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾⁽¹⁾ .

وفي سورة يوسف يقول - عز وجل - : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾⁽²⁾ .

وفي سورة الأنبياء يقول عز من قائل : ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُصَيِّحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾⁽³⁾ .

هذه الآيات وغيرها من آيات الذكر الحكيم تعالج قضية شائعة بيننا ، منتشرة فينا ، وهي قضية المفارقة بيننا وبين الأنبياء ، ما قابلت أحداً من الناس يقول بذلك وإنما قابلت من يقول : «هؤلاء كانوا أنبياء ، أما نحن فبشر غير معصومين ، وحالنا حال» .

كأنه يرى أن نصر الله للأنبياء فقط ، وأن الله لا ينجي إلا رسله وحدهم دون سواهم ، أي دوننا نحن الذين بيننا وبين الأنبياء مسافات طويلة وبعيدة وفي ذلك بعد عن كتاب الله - تعالى - وصريحه الذي يفيد كما ترى في الآيات السابقة أن الله - عز وجل - ينصر أنبياءه ، وينصر الذين آمنوا بل إنه يذكر المؤمنين مع النبيين ، ألا ترى إلى قوله - تعالى - : ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾⁽⁴⁾ .

(1) يونس : 103 .

(2) يوسف : 22 .

(3) الأنبياء : 88 .

(4) الأعراف : 82 .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ ⁽¹⁾ ﴾ وقوله تبارك اسمه :
﴿ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهَ أَلَا إِن نَّصُرَ اللَّهُ قَرِيبٌ ⁽²⁾ ﴾ .

والله - عز وجل - ذو فضل عظيم ، ورحمة واسعة صحيح أن الفرق بيننا وبين
الأنبياء عظيم ، لكن فضل الله - تعالى - أعظم . فلم اليأس من رحمة الله ؟!

أذكر في هذا السياق غضبة من غضبات سيدنا رسول الله - ﷺ - كما جاء في
صحيح البخاري حين سأل رجلٌ من الصحابة رسول الله - ﷺ - عن حكم الجنب
يصبح صائماً ، أي هل يصح صومه ؟ فبين له - ﷺ - أن صيامه صحيح ، وأكد له
ذلك بأنه - عليه الصلاة والسلام - يصبح جنباً وهو صائم ، أو يصبح صائماً وهو
جنب ، فقال السائل لسنا مثلك يا رسول الله ؛ فقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك
وما تأخر ؛ فغضب - ﷺ - وقال : إني أتقاكم الله ، وأخشاكم لله .

وأذكر قصة ثوبان خادم رسول الله - ﷺ - حين دارت برأسه مسألة رآها
مهمة ، وهي تتعلق بحبه لرسول الله - ﷺ - فقد كان كلما ذهب إلى بيته يشتاق
لرؤية رسول الله - ﷺ - فيعود إليه ؛ فيراه ، فيشبع هذا الشوق والأمر سهل ؛ إذ ما
عليه إلا الرجوع إليه ؛ ففكر فيما بعد هذه الحياة الدنيا ، إذا مات ، وأدخله الله -
تعالى - الجنة لا شك - فيما رأى - أنه لن يرى رسول الله - ﷺ - حيث إن الجنة
منازل ، ولن يكون في منزلته - ﷺ - ويبدو أن هذه الفكرة تملكته ؛ فصارح بها
المصطفى المختار - ﷺ - فسكت - ﷺ - ولم يجبه ؛ فأنزل الله - تعالى - قوله :
﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ

(1) الفتح : 29 .

(2) البقرة : 214 .

وَالشُّهَدَاءُ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا * ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿١﴾ .

وعندئذ أرسل إليه النبي - ﷺ - رجلاً ، وبشّره ، بما أنزل الله - تعالى - فيه .

يقول الشيخ سليمان الجمل - عليه رحمة الله - : « كلب أحب قومًا ، فذكره الله معهم ، فكيف بنا وعندنا عقد الإيثار ، وكلمة الإسلام ، وحب النبي - ﷺ - ولقد كرمنا بني آدم » (٢) وذلك في تفسيره سورة الكهف ، حيث قال الله - تعالى - : ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا * وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَنَسَاطٌ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا ﴾ (٣) .

وكما ذكرت إن كان البون شاسعًا بيننا وبين الأنبياء فإن فضل الله أعظم ، وقد قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾ (٤) بعد قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ (٥) فما بالناس لا نقبل على فضل الله - عز وجل - ولا نسعده به !

(١) النساء : ٦٩ ، ٧٠ .

(٢) الفتوحات الإلهية : ١٣ / ٣ .

(٣) الكهف : ١٧ ، ١٨ .

(٤) النساء : ٧٠ .

(٥) النساء : ٦٩ .

وقد ورد في الصحيح أن المتحايين في الله على منابر من نور يوم القيامة يغبطهم النبيون .

فإن كنا بحق باحثين عن شيء فلبحث في شرط ذلك وهو الإيمان ، كن مؤمناً حقاً ، وكن على يقين أن الله ينجيك كما نجى النبيين ، ويجب دعائك كما أجاب دعاء النبيين ، وقد قال الله - عز وجل - في أيوب - عليه السلام - إذ دعاه أي مسني الضر وأنت أرحم الراحمين : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَبِيدِينَ ﴾ ⁽¹⁾ .

فما فائدة قوله : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ ⁽²⁾ ، وقال سبحانه ، ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ ⁽³⁾ .

وقد قال سبحانه : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مَنِ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ⁽⁴⁾ فكن محسناً ، تكن رحمة الله قريباً منك كما كانت قريباً من النبيين ، واحمد الله على فضله العظيم ، ولا تقل : كانوا أنبياء أما نحن فضائعون ؛ فإن الله يقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ ⁽⁵⁾ .

(1) الأنبياء : 84 .

(2) غافر : 60 .

(3) البقرة : 186 .

(4) الأعراف : 56 .

(5) الكهف : 30 .

﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ ﴾ .

يقول الله - تعالى - : ﴿ وَأَصْنَعُ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿⁽¹⁾﴾ .

أمر الله - عز وجل - نبيه نوحًا - عليه السلام - أن يصنع السفينة ، وقال : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ ﴾ عبر بالمضارع لحكاية الحال الماضية ، كما قال الزمخشري ⁽²⁾ وأقول : إن ثمرة حكاية الحال الماضية أن ينظر إليها المخاطب ، وكأنه يراه بعينه الآن ؛ ليتجدد فيه العزم على المحاكاة ، فيعمل كما يرى نبي الله يعمل ، وهذه الآية مهمة جدًا في قصة الدعاء الغائب عن أمتنا فقد دعا نوح ربه : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذِبُونَ ﴾ فَأَفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَأَنْجِنَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿⁽³⁾﴾ .

وقال : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ ﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوْحِ وَدُسُرٍ * تَجَرَّى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءٌ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿⁽⁴⁾﴾ .

وذات الألواح والدرس ، أي السفينة التي صنعها نوح - عليه السلام - بيديه ، حملة الله عليها ، وفضل الله عليه وعلى سائر عباد عظيم فما كانت لتجري على

(1) هود : 37 ، 38 .

(2) انظر الكشف : 268 / 2 .

(3) الشعراء : 17 ، 20 .

(4) القمر : 10 - 14 .

اليابس ، وما كانت لتسلم في إبحارها في كل هذا الماء إلا بأمر الله وحفظه ، فأي درس تعلمناه من ذلك ؟!

هل أعددنا قليلاً من السبب ، ودعونا الله - عز وجل - فبارك لنا فيه ، ونجانا به وبما يفتح به من فيوضات رحمته ، كما أنزل الماء من السماء ، وفجر الأرض عيوننا وبارك في سفينة أعدها عبده ورسوله ؟!

أم أننا ندعو دون أن نعد شيئاً من سبب ؟! إنني أتذكر في هذا السياق نكتة طريفة ، تقول إن أحد الناس ظل يدعو الله ذرية طيبة ، لمدة عشر سنين وقام ذات ليلة ، فأتاه هاتف في منامه ، وقال له منذ عشر سنين وأنت تسأل الله ذرية طيبة فهلّا تزوجت أولاً !

كان يسأل الله ذرية طيبة وهو غير متزوج فكيف ذلك ؟!

والله - عز وجل - يقول : ﴿ بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنِّي يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ (1) 》 .

وما أشبه حال كثير من الناس بحال ذلك الذي ظل يدعو الله - تعالى - ويسأله ذرية طيبة ، وهو عزب بلا زواج .

لقد فقد الصحابة - رضوان الله عليهم - الماء ، وأمر النبي - ﷺ - علياً ورجلاً معه أن يبحثا عن ماء ، فلقيا امرأة قادمة بهاء من جهته فسألاها عن مكانه فقالت إنه بعيد ؛ فعادا بها إليه - ﷺ - فسألاها قليلاً من مائها ، فأعطته ، فوضعه في إناء ، وذكر الله - تعالى - ففاض الماء من بين أصابعه الشريفة وكفى الناس وكانوا فوق الألف وأربعمئة ، وأعطاهما منه ما أخذه ، وأمر أصحابه أن يجمعوا لها ، فلما أتت قومها قالت : جئتكُم من عند رجل إما أن يكون نبيا وإما أن يكون أسحر الناس .

وفي حديث جابر يوم الخندق قرأ - رضي الله عنه - الجوع في وجه رسول الله - ﷺ - فذبح له شوية ضعيفة ، وكان قد عزم على أن يسر إليه بذلك ؛ لأنها لا تكفي عددًا كبيرًا ، لكنه - ﷺ - دعا إلى بيت جابر جميع من في الخندق حتى قال جابر في نفسه : «إنا لله وإنا إليه راجعون» .

وذهب الناس جميعًا ، وأكلوا عشرة عشرة بركة تكثير الطعام بين يديه - ﷺ - . كل ذلك وغيره يشهد بأنه لا بد من شيء يعتمد عليه الدعاء ، وتكون عليه البركة ؛ ولذا أقول هذه العبارة ، وأراها طريفة ، وأسأل الله أن ينفع بها ، وهي «لا بد من نواة للبركة في الدين» فلا تكون البركة في صفر فضلًا عن السالب قبله ، والدليل على ذلك ما سبق ذكره .

بارك الله في قليل العدد ، وكتب لهم النصر : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ⁽¹⁾ .

وقال عز وجل : ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ ⁽²⁾ .

وقد جاء في الصحيح أن العبد يتصدق بالصدقة ، فيأخذها الله - عز وجل - بيمينه ، فينميها له كما يربي أحدنا «فلوه» أي مهره الصغير ، فلا بد من شيء ولو كلمة طيبة كما جاء في روايات كثيرة .

(1) آل عمران : 123 .

(2) البقرة : 249 .

﴿ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا ﴾ .

يقول الله - تعالى - : ﴿ وَأَمْرَأَتُهُ قَابِئَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ
إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾⁽¹⁾ .

انظر كيف ضحكت سرورًا كما قال الزمخشري⁽²⁾ وكانت النتيجة أن جاءتها
البشرى .

وهذا درس عظيم غائب عنا ، حيث العبوس والقنوط من رحمة الله ، واليأس
من رحمة الله ، ترى مَنْ كان في ابتلاء يسير يظن أنه لن ينجو منه ، ولن ينكشف أبدًا ،
إلى درجة أن أحد المبتلين قيل له : إن الله - تعالى - يقول : ﴿ وَنُفِثَ الصَّبِيرُ ﴾
الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾⁽³⁾ فاسأل الله - عز وجل -
أن يكشف ما بك من سوء ، فقال هذه الكلمة التي من الصعب أن تنسى :
معقولة ؟! نعم ، معقولة ، ومنقولة ، وقد سبق أن ذكرت في الآية الثالثة من سورة
هود أن الله - عز وجل - يمتّع المؤمنين المستغفرين متاعًا حسنًا إلى أجل مسمى ،
ذلك الأجل الذي سماه عنده - عز وجل - وأن من يتقي الله يجعل له مخرجًا ويرزقه
من حيث لا يحتسب ، إننا في مثل هذه المسألة أشد حاجة إلى مراجعة أنفسنا
وأحوالنا النفسية بين الشدة والرخاء ، فالمؤمن على يقين أن الشدة إذا اشتدت فرجت ،
ألا ترى إلى قوله - تعالى - : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ
خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْزِئِينَ الْبَاسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا
مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾⁽⁴⁾ .

(1) هود : 71 .

(2) انظر : الزمخشري : 281 / 2 .

(3) البقرة : 155 ، 156 .

(4) البقرة : 214 .

مأساتنا أننا إذا دنونا من الفرج طردناه بهذا القنوط واليأس ، وكان علينا أن نعي أن الفرج قريب ، وأن الخير آت بإذن الله - تعالى - وأن الفرج الذي ننشده بالباب ، وعلينا أن نفتح له الباب ، برفق ، ونحن سعداء ، ﴿ فَضَحِكْتَ فَبَشَّرْنَاهَا ﴾ والبشرى تكون لمن يضحك ، وقد قال الشهاب الخفاجي - رحمه الله - في عناية القاضي ، وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي أن للنعمة لسانا تخاطب به ربها قائلة : اللهم أبقيني في دار فلان ، فإنه كلما رأي فرح بي وشكرك علي ، وتقول عند آخر : اللهم أخرجني من بيت فلان ، فإنه كلما رأي لم يفرح بي ، ولم يشكرك علي .

وقد جاء في الحديث الصحيح قول النبي - ﷺ - ما بال المؤمن أمره كله خير ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له والصبر الذي في كتاب الله غير الصبر الذي عرفه الناس ، فهو صبر الأقوياء ، الذين يحبسون أنفسهم عن الشكوى لغير الله - تعالى - فالذي قال : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ ﴾ ⁽¹⁾ وهو يعقوب - عليه السلام - هو الذي قال : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُوا بِنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ ⁽²⁾ .

والله حَسْبُ مَنْ شكا إليه ، فليس في حاجة إلى أن يشكو إلى مخلوق . لا يملك له ضرراً ولا نفعاً إلا على سبيل التقاضي لأخذ حقه ببيته ؛ فإن القضاء مشروع .

نعم على المؤمن أن يستبشر بفرج الله الذي هو على يقين من مجيئه إليه ، وهو منه قريب ، قال الله - تعالى - : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ⁽³⁾ .

(1) يوسف : 18 .

(2) يوسف : 86 .

(3) الأعراف : 56 .

﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

يقول الله - تعالى - : ﴿ وَيَنْقُومُ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ (1) .

هكذا قال شعيب - عليه السلام - لقومه الذين كانوا ينتقصون المكيال والميزان ، أي الكيل والموزون ، ويبخسون الناس أشياءهم ، أمرهم - عليه السلام - بالوفاء في المكيال والميزان ، ونهاهم عن بخس الناس أشياءهم ، وقال ﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أي رزقه الحلال خير لكم .

وقد يكون المراد بقية الله لكم في الآخرة على ما ذكره الزمخشري (2) ، أي ﴿ وَالْبَقِيَّتُ الصَّالِحَتُ ﴾ (3) .

ونحن في حاجة إلى التفسيرين ، أعني نحن في حاجة إلى الجمع بينهما ، والإفادة من هذه الآية الكريمة ﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ فالرزق الحلال خير ، والبقايات الصالحات في الآخرة خير كذلك ، ولا مانع من اجتماعهما ، فإن الذي يزن بالقسط ، ويكيل به يحظى بالحلال الطيب ، وهو خير له ، وفي الوقت نفسه يكون قد أطاع الله - عز وجل - فبقى له أجره وثوابه عند مولاه يوم لا ينفع مال ولا بنون .

وقد ظهر جلياً شيوع هذه العبارة على ألسنة التجار والباعة الذين يقولونها صراحة لا ضمناً : إننا لومشينا على الصراط المستقيم لما أكلنا ، وما شربنا ، وما عشنا ، ويتعللون بنقص المكيال والميزان بأن وراءهم إيجار محال ، وكهرباء ، ومياه وأجرة

(1) هود : 85 ، 86 .

(2) انظر : الكشف : 286 / 2 .

(3) الكهف : 46 .

عمال ، وضرائب ، فمن أين نسدد ذلك كله ومنهم من يلصقها بالحكومة والنظام ، فيقول : إن الحكومة هي السبب ، ومنهم من يقول إن تجار الجملة هم السبب ، فالبضاعة تأتي ناقصة ، والميزان الكبير الذي يزنون لنا به خلاف الميزان الصغير ، علل ، وأسباب لا تسوغ لهم التطفيف ، وهم في النهاية يربحون ، لكنهم يزعمون أن هذا الربح قليل ، لا يكفي ، ويسير لا يسد حاجة وراءهم مما ذكروه .

ولو علموا أنه بقية الله ، فانظر ماذا تكون البقية ، إنها بقية الله - عز وجل - لا بقية أحد من الناس يشوبها العوار والنقص ، وبقية الله خير كما قال ، ومن زعم أنها ليست بخير فقد افترى على الله الكذب ، وكان له ما أراد ؛ لقوله - تعالى - في الحديث القدسي : «أنا عند ظن عبدي بي ، فإن ظن بي خيرًا فهو خير» ، فالمسألة مبنية على الاعتقاد واليقين .

وقد يقول بعض الناس : إن هذه البقية قليلة ولكنها مباركة ، وقد يكون هذا القول صائبًا ، فتش عن الخير في بقية الله - عز وجل - تجده بإذنه - تعالى - كما يقول هؤلاء ، وفي أحاديث كثيرة نجد قول النبي - ﷺ - : «من استعف أعفه الله» و«من استغنى أغناه الله» .

وقد قال الله - تعالى - : ﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ⁽¹⁾ .

صحيح أن الكثرة قد تعجب ؛ لأنها مما تزيع إليه الأعين ، ويسبي النفوس الضعيفة ، لكن ذا اللب لا يسوي بين كثير خبيث ، وبين قليل طيب ، فالقليل الطيب يربو عنده ، ويزيد ، ويعلو ، ويرتفع ، وإليه يسعى .

وهو - والله - وإن كان قليلاً في مرأى العين غالب ، وكافٍ ، والرزق في كتاب الله - تعالى - لم يأت موصوفاً بالكثرة ، وإنما جاء موصوفاً بالحسن ﴿ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا ﴾⁽¹⁾ ، ﴿ قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴾⁽²⁾ وجاء موصوفاً بالكرم ﴿ رِزْقًا كَرِيمًا ﴾⁽³⁾ وقال في الوقت نفسه : ﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً ﴾⁽⁴⁾ .

فالمهم أن يكون الرزق حسناً ، والحسن آية جمال ، والعبرة بالتأنيج ، ألا ترى إلى قوله - تعالى - : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾⁽⁵⁾ .

وكما غلبت الفئة القليلة الفئة الكثيرة بإذن الله ، كذلك يغلب الرزق الحلال المال الكثير الخبيث ، فيؤدي رسالته عند من قنع به ، فإذا به يأكل اللقمة هنيئاً مريئاً وإذا به يستمتع بها ، روي أنه - ﷺ - كان يقول عند فراغه من قضاء الحاجة :

« الحمد لله الذي أذاقني حلاوته ، وأبقى في قوته ، وخلصني من أذاه » .

وقد ترى ذا المال الكثير في وثير الفراش ولا ينام قرير العين ، ويقعد أمام ما يسمى بالبوفيه المفتوح ويأكل من كل صنف ، ولا يشبع ، أو يشبع لكن يشعر بأنه وضع حجارة في بطنه ، لا لحماً طرياً ، ولا غيره من طيب الطعام ، وقد يشرب

(1) النحل : 75 .

(2) الطلاق : 11 .

(3) الأحزاب : 31 .

(4) الفتح : 20 .

(5) آل عمران : 13 .

المياه المعدنية ولا يشعر برئٍ يشعر به من شرب من (الحنفية) ، أو من التربة ،
فالحلال سحره وسره ، وآياته ، التي لا يعرفها إلا من ذاقه ، كما قيل :

لَا يَعْرِفُ الشَّوْقُ إِلَّا مَنْ يُكَابِدُهُ

وأنا لا أحب تلك المقارنة بين القليل ذي المنافع الشتى وبين الكثير الخبيث ؛
لأنني أؤمن أن الإسلام ليس ضد الكثرة ، بدليل قوله - تعالى - : ﴿ وَمَغَايِمَ كَثِيرَةً
يَأْخُذُونَهَا ﴾ ⁽¹⁾ وقوله - ﷺ - في دعائه : « اللهم زدنا ولا تنقصنا » .

.....

﴿ بَقِيتُ اللَّهَ ﴾ .

استوفني هذا التركيب الإضافي ﴿ بَقِيتُ اللَّهَ ﴾ وأنا أقرأ هذه الآية من سورة
هود على لسان شعيب - عليه السلام - حين قال لقومه : ﴿ بَقِيتُ اللَّهَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ
كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ ⁽²⁾ .

لقد شاع في قوم شعيب نقص المكيال والميزان ، فنهاهم عن ذلك : ﴿ وَإِلَى
مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُومِ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنْقُصُوا
الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَبُّكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾
وَيَنْقُومُوا أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَمْشَاءَهُمْ وَلَا
تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۖ ﴾ ⁽³⁾ .

(1) الفتح : 19 .

(2) هود : 86 .

(3) هود : 84 ، 85 .

وسر التوقف محاولة النظر في التعبير بـ ﴿بَقِيَّتْ﴾ ، أن النظر عندها وحدها يفيد القلة بلا شك ، وذلك عند الإطلاق ، لكن إذا أضيفت إلى ذي الجلال - سبحانه وتعالى - أفادت كثرة بلا حد ؛ حيث إنها لم تعد بقية ، وإنما هي بقية الله ، وكذلك إذا قلت : فلان له على فلان ألف ، أخذ منها مائة ، فالبقية تسعمائة ، وهي أكثر مما أخذ ، فالسياق والإضافة يحددان معنى البقية .

والناس يعرفون ذلك ، ألسنت تسمع الزوجة التي تعاني سوء معاملة زوجها ، حين تقول له : اسمع ، أنا لو عشت على بقايا طعام أخي شبعنا وعشت حياة كريمة ، أفضل من تلك الحياة التي أعيشها في كنفك .

ومعنى هذا أن أخاها رجل ميسور الحال بلا شك بدليل أن بقية طعامه تكفي مثلها وزيادة ، فما بالك بالأصل !

وقد تكون البقية أكثر من الحق عند الكرام بحق أو المرائين ، فقد يشرب غني شيئاً بعشرة جنيهات ويعطي الساقي مائة ، ويترك له بقيتها .

وقد أوتر هذا التعبير في تلك الآية ، مراعاة للسياق ، وكأنه ضرب من المشاكلة المعنوية ؛ لأن الذي ينخس الناس أشياءهم ، أو يظلمهم في المكيال والميزان يستقي بذلك لنفسه ما يظنه ربحاً ، وهو ليس بربح ، بل خسارة عليه في الدنيا والآخرة ، كما قال الرازي⁽¹⁾ .

أما إذا أعطى الناس حقهم ، ووفى ، كان له بلا شك بقية ربح حلال ، قد تكون قليلة في العدد ؛ لكنها كثيرة بالنظر إلى البركة ؛ لأنها ﴿بَقِيَّتْ أَللَّهُ﴾ وما أعظم تلك البقية ؛ لأنها بقية الله العظيم ، جل جلاله الذي يعطي من لدنه أجراً عظيماً .

(1) انظر : تفسير الرازي : 592 / 8 .

إن هذه المسألة من مسائل اليقين ، فمتى اعتقد المسلم أن بقية الله خير له ، وإن قلت في أعين الناظرين رأى ثمرتها ، ويكفيه أنه في طاعة مَنْ أعطاها ، والملك بيده ، والبركة من عنده وقد قال - تعالى - : ﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأْتِ أَوَّلِي الْأَلْتَبِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴾ ⁽¹⁾ .

نعم إن الكثرة موضع إعجاب ، لكن الإعجاب لحظة ، ويبقى من بعده التفكير ، فهو يطرح في النفايات ، ويلقى من وراء الظهر ويقصى بعيداً إذا كان من ورائه النار ، ويكون النظر إلى القليل الحلال أولى .

ثم انظر إلى عاقبة الذين يحصدون الكثير من الحرام ، قد يحصدون شوكه وعالله في الحياة الدنيا ، فإذا بهم ينفقونه في معالجة الأمراض والأزمات ، أو أنهم لا يشعرون بلذة طعامه وشرابه ، وقد يتراكم فوق رؤوسهم ناراً يوم القيامة ؛ فقد قال ربنا - عز وجل - : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا لَهُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ ⁽²⁾ .

فمن غل أي أخذ ما ليس من حقه جاءه يوم القيامة ناراً ولو كان حبة ، وقد يكون بغيراً أو شاة ، كذلك يأتي بغيراً من نار ، وشاة من نار ، كما جاء في الحديث الشريف الصحيح عن المعصوم سيدنا رسول الله - ﷺ - فهنيئاً لمن أبصر ، ورضي بالحلال ، وتعمساً وشقاء لمن غره الكسب الحرام ، فرآه حسناً ، وثروة عظيمة ، وهو لا يدري أنه في جهنم وإلى جهنم ، رزقنا الله الحلال ، وجنبنا الحرام ، وما يؤدي إليه .

(1) المائدة : 100 .

(2) آل عمران : 161 .

﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ ﴾ .

يقول الله - تعالى - : ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ
الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا
وَالْحَقِّنِي بِالصَّلَاحِينَ ﴾ (1) .

السبب الذي جعلني أتعرض لهذه الآية الكريمة وأشرف بالكتابة فيها في هذا
العمل ، الذي أسأل الله أن ينفع به الناس ، أنه شاع على ألسنة كثير منهم « اللهم
أخرجنا منها (من الدنيا) على خير » بمناسبة ، وبغير مناسبة ، ما رأيت إنسانًا يمر
بمشكلة يسيرة إلا وهو يقول : ربنا يخرجنا منها على خير ألا يرى هؤلاء ماذا قال
يوسف - عليه السلام - في هذه الآية ؟ ما قال توفني مسلمًا إلا بعد أن آتاه الله الملك ،
وعلمه من تأويل الأحاديث ؛ ولذا طاب لي أن أرد على بعض هؤلاء الذين يقولون
تلك العبارة ، فلما قال : أسأل الله يا دكتور أن يخرجنا منها على خير ؛ فقلت له :
بل أسأل الله - تعالى - أن يدخلنا فيها أولًا ، ثم يخرجنا منها على خير ، فما قال
يوسف - عليه السلام - ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا ﴾ إلا بعد أن آتاه الله الملك وعلمه من
تأويل الأحاديث .

ولنا أن نذكر في هذا السياق أن الله - عز وجل - قال لرسوله - ﷺ - : ﴿ إِذَا
جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ
رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ (2) .

(1) يوسف : 101 .

(2) سورة العصر .

وقد فهم ابن عباس - رضي الله عنهما - أن هذه السورة الكريمة نعي رسول الله - ﷺ - ، نعى الله - تعالى - إليه نفسه ، وبهذا التفسير احتج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - على الذين رأوا أن ابن عباس صغير ، فكيف يحضر مجلس عمر ، وفيه الكبار ، فسأل عمر الكبار عنها ففسروها على ظاهر ألفاظها أنه إذا جاء النصر والفتح وجب الاستغفار والتسبيح ، وسأل عنها ابن عباس فذكر ما قلته ؛ فقال عمر : وأنا لا أفهم منها إلا الذي تفهم .

ولنا أن نتعلم من ذلك الدرس الكبير أنه - ﷺ - ما قال : بل الرفيق الأعلى وما نعى الله - تعالى - إليه نفسه إلا بعد أن جاء نصر الله والفتح ، وقال الله - عز وجل - : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (1) .

وقد ورد في الصحيح عن النبي - ﷺ - أنه نهى عن تمني الموت لضرب أصاب المرء ، فالحياة نعمة ، والجهاد فيها واجب ، والمرء قد يكون على حسن عمل ، فيزيده طول العمر حسناً ، وقد يكون على سوء والعمر فرصة له كي يتوب .

ثم قال النبي - ﷺ - : « فَإِنْ كَانَ لَأَبَدٌ قَائِلًا فَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي ، وَتَوَفَّنِي مَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي » .

أما أن يكون على لسان المرء دائماً : اللهم أخرجنا منها على خير ، فهذا إذا أتم رسالته فيها ، وليست رسالة المرء في أن يرى أولاده حتى يزوجهم ، ثم يقبل يديه ، ثم يقول : اللهم أخرجني منها على خير ، فأين رسالته في خدمة دينه وأمته ، وقد يكون قادراً على فعل الكثير من أجل دينه وأمته .

﴿ وَإِنْ مَا تُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَتَوَقَّعُ ﴾ .

يقول الله - عز وجل - : ﴿ وَإِنْ مَا تُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَتَوَقَّعُ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَّغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ ⁽¹⁾ .

تعالج هذه الآية مشكلة وقضية من مشكلات النفس البشرية ، وهي انشغال المرء بأمر من ظلمه من الناس ، يود أن يرى فيه يوماً كما يقولون .

ترى الإنسان المظلوم يقول ما نعرفه جميعاً بالحرف الواحد : «أنا لن يهدأ لي بال ، ولن تقر لي عين ، ولن تطيب نفسي حتى أرى في ذلك الظالم يوماً ، يا رب ، أرنى فيه يوماً ، يا رب أراه وقد دهسته سيارة أو داسه قطار ، أو جاءني خبره» .

فهلا قرأنا هذه الآية وغيرها من الكتاب العزيز ؛ لنعرف أن الله - تعالى - عليه وحده حساب الظالمين إن شاء أرانا بعض آياته فيهم ، وإن شاء فعل ذلك بهم بعد وفاتنا ، وعلينا ألا نشغل بهذه المسألة ، فكفانا أن الله - تعالى - ليس بغافل عما يعمل الظالمون قال سبحانه : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ ⁽²⁾ .

أما وقت انتقام الله - تعالى - منهم فمرده إليه ، لقد قال موسى - عليه السلام - : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ⁽³⁾ .

(1) الرعد : 40 .

(2) إبراهيم : 42 .

(3) يونس : 88 ، 89 .

قال البيضاوي⁽¹⁾ : « فاثبتا على ما أنتما (موسى وهارون) عليه من الدعوة ، وإلزام الحجة ، ولا تستعجلا ؛ فإن ما طلبتما كائن ، ولكن في وقته ، روي أنه مكث فيهم بعد الدعاء أربعين سنة » .

وقال الشهاب الخفاجي في حاشية ذلك : يقتضي ألا يستعجلا بالإجابة .

والإنسان عجول بطبعه ، لكن الإيمان يصلح فيه كثيرا من الطباع الفاسدة ، ومنها الاستعجال وغيره ، ألا ترى إلى قوله - تعالى - : ﴿ إِن الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴾⁽²⁾ فقد استثنى المصلين من جنسهم ؛ لأنهم من الناس ، لكن الصلاة أخرجتهم من طباع هذا الجنس ، فهم لا يجزعون ، عند شر ، ولا يمنعون عند خير .

أناس كثيرون مصابون بهذا المرض النفسي القاتل وهو الاستعجال ، يدعو المرء دعاء خير ، ويود أن تواتيه الإجابة في الحال ، ويدعو دعاء شر على من ظلمه ، ويود أن تنزل عليه صاعقة من السماء فورًا ، إثر دعائه عليه كأنه يرى في ذلك شفاء لنفسه ، وما يشعر به من سواد بسبب الظلم ، والله يعلم إن تسليمه الأمر لله خير علاج له .

فليستقم على أنه فوض الأمر لله - عز وجل - ولينظر ما وراءه من أعمال ، يؤديها على ثبات ، وهدوء نفس واستقرار حال ، وهو على يقين أن الله - تعالى - يميل للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته ، هكذا قال - ﷺ - ثم قرأ قوله - عز من قائل - : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾⁽³⁾ .

(1) تفسير البيضاوي : 56 / 5 .

(2) المعارج : 19 - 20 .

(3) هود : 102 .

لكن متى ذلك ؟ الله وحده الذي يعلم ، وكل شيء عنده بمقدار ، وهو - سبحانه وتعالى - الحكيم ، الذي يضع الشيء موضعه .

وقد يتوب - سبحانه وتعالى - على هذا الظالم فيرد عليك حقك ، أو لا يرد ، ويعطيك الله - تعالى - أفضل مما لك عنده .

وقد قال - تعالى - : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ ⁽¹⁾ .

وقد نزلت هذه الآية بسبب أنه - ﷺ - كان يدعو على بعض المشركين بأسمائهم ، فلما نزلت لم يدع عليهم .

فكن مطمئناً إلى عدل الله - عز وجل - وإلى حكمته البالغة ، وإلى أنه كما قال : ﴿ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴾ ⁽²⁾ وقال سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ ⁽³⁾ وامنض فيما أمرك الله ، ومن دعاء التابعين « اللهم لا تشغلني بما ضمنته لي ، واشغلني بما كلفتنني به » .

وقد ضمن الله لنا أنه ينتقم من المجرمين ﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ ﴾ ⁽⁴⁾ وضمن لنا إجابة دعوة المظلوم وفي الحديث : « اتقوا دعوة المظلوم » وفي الحديث القدسي يقول لها رب العزة : « بَعِزَّتِي لَأَنْصُرَنَّكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ » ، فلننشغل بما كلفنا الله - تعالى - به من طاعته ونحن على يقين أن الله حسبنا ونعم الوكيل .

(1) آل عمران : 128 .

(2) طه : 52 .

(3) مريم : 64 .

(4) السجدة : 22 .

﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً ﴾ .

يقول الله - عز وجل - : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (1) .

وهذه الآية الكريمة مما يؤكد أن ثواب الدنيا قائم ثابت وأن حياة المؤمن حياة طيبة ذكرًا كان أو أنثى ، وقد يتمثل طيب الحياة في اليسر ، وكما قال الزمخشري (2) وهذا لا كلام فيه ، وقد يتمثل في مقابله «العسر» لأن مع المؤمنين الرضا والقناعة بخلاف الفاجر إن كان في ضيق فحياته ليست طيبة ؛ لأن الضيق واضح ولا رضا معه ، وإن كان موسرًا شغله الحرص عن الاستمتاع بها عنده ، هكذا قال العلماء ، وما قالوه حق ، فنعم المال الصالح للعبد الصالح كما جاء في الحديث الصحيح ، يتقي فيه ربه ، ويصل به رحمه ، وينفقه في وجوه الخير ، فيبارك الله له فيه ، حيث يخرج زكاته المكتوبة ، والزكاة طهارة ونماء للمال ، ويتقرب منه بصدقة تطوع تزيده قربا من الله مولاه «وَمَا زَالَ الْعَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ لَهُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَعَيْنَهُ الَّتِي يُبْصِرُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَلِئِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ ، وَلِئِنْ اسْتَعْفَرَنِي لِأَغْفِرَنَّ لَهُ» .

فأي طيب بعد هذا ، وأي سعادة ينتظر العاقل بعد سعادته بأن يكون له من الله نور في سمعه وبصره ورجله ويده وفي دعائه المستجاب .

حتى الذي في ضيق من العيش ، يضيفي عليه رضاه سعة لا يرى معها ضيقًا ، ولا بها بؤسًا ، بل إنه يرى القليل كثيرًا ، والمالح حلواً .

(1) النحل : 97 .

(2) انظر : الكشاف : 427 / 2 .

وأذكر في هذا السياق قصة سيدنا عثمان بن مظعون أبي السائب - رضي الله عنه - حيث أجاره الوليد ففكر في التخلص من جواره ، وذلك أنه - رضي الله عنه - هاجر إلى الحبشة ، وأشيع هنالك أن المشركين دخلوا في دين الله ، فعاد ، ودخل مكة على النظام المتبع وقتها في جوار عين من أعيانها وعلم من أعلامها ، وهو الوليد لكنه - رضي الله عنه - فكر في نفسه ، وقال : كيف أكون في جوار كافر ، ولا ألاقى ما يلاقي إخواني من التعذيب ، وتخلص من جوار الوليد بعد أن شكره ، وجلس في البيت الحرام مع جماعة من الناس كانوا يستمعون إلى إنشاد لييد ، فلما قال :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

قال عثمان : صدقت .

فلما قال لييد :

وكل نعيم لا محالة زائل

قال عثمان : كذبت : فإن نعيم الجنة لا يزول .

فغضب الشاعر ، وقال للقوم من حوله : متى أهين جليسكم ؟! فهب رجل من الجالسين ولطم عثمان على عينه فاخضرت ؛ ورأى الوليد ذلك ، فجاء إليه ، وقال :

يا ابن أخي ، أما كان جوارِي خيراً لك من هذا ؟

فقال عثمان :

لا تشمت ؛ فإن عيني الصحيحة لفقيرة إلى ما أصاب أختها في الله .

فانظر حال الرضا بالإصابة في الله ، كيف عبر عنها بأن الصحيحة تشتاقي إلى ما أصاب أختها في الله ، وكذلك حال من ضيق عليه في الرزق إذا لم يكن هو سبباً في ذلك الضيق بتواكله وكسله ونومه .

﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ .

يقول الله - عز وجل - : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿⁽¹⁾ .

كثير من الناس في زماننا قد أثر فيهم الوهم ، واتبعوا خطوات الشيطان ، فانشغلوا بمسألة الجن ، واللبس ، والأعمال ، وأنشئت من أجل ذلك قنوات فضائية ، منها قناة تعمل على مدار الساعة في الرقية الشرعية من الجن ، فأنت ترى رجلاً يتلو آيات بعينها من سورة البقرة ، والصفات وغيرها ، يكررها آناء الليل وأطراف النهار ، وكان الحق يقتضي أن تستغل مثل هذه القناة في خدمة كتاب الله وشرح صحيح الدين ، وتنوير المسلمين ، فلا حول ولا قوة إلا بالله ؛ وذلك لأن الأمر أهون من ذلك .

وقد قال ربنا في آيات متعددة ، منها تلك الآيات من سورة النحل : ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾⁽²⁾ أي قل : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، والرجل يقرب من امرأته فيقول بسم الله الرحمن الرحيم اللهم جنبني الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتني ، فلا يمس ولده شيطان إن رزقه الله ولذا كما جاء في الحديث وقد قالت امرأة عمران : ﴿ وَلَئِنْ أُعِيدُهَا بِلَكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾⁽³⁾ فما مس الشيطان مريم ، ولا ابنها ، كما جاء في الحديث الصحيح أيضًا ، فماذا قالت أم مريم التي نذرتها لله ، فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسناً

(1) النحل : 98 - 100 .

(2) الأعراف : 200 .

(3) آل عمران : 36 .

وجنبها وابنها الشيطان ، قالت : ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ أَوْ يَحْتَاجُ هَذَا الْأَمْرُ إِلَى قَنَاةٍ فَضَائِيَةٍ !!؟

ثم انظر إلى قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ⁽¹⁾ .

إنَّ هذه الآية حكم وبيان من الله - تعالى - يفيد بأنَّ الشيطان وقبيله ليس لهم سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ؛ فليراجع نفسه وإيمانه كل من قال إن الشيطان متسلط عليّ ، وإن الشيطان يغلبني ، وأشعر بأنني ملبوس ، وبدخلي الشيطان ، والله در الإمام الشافعي - يرحمه الله - حيث قال : لا أقبل شهادة من يقول إنني أرى الجن ؛ لفسوقه ، حيث قال الله - تعالى - : ﴿ إِنَّهُ يَرَنكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ ⁽²⁾ وإجماع علماء الأمة على أن الشيطان لا يملك إلا الوسوسة ، وقد قال العلماء في معناها اللغوي «إنها صوت الحلي الذي لا يكاد يسمع» . فهي ضعيفة .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ ⁽³⁾ وفي تلك الوسوسة يقول الله - تعالى - : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ ⁽⁴⁾ .

(1) الأعراف : 27 .

(2) النحل : 99 .

(3) النساء : 76 .

(4) سورة : الناس .

وشيطان الإنس عند العلماء والعقلاء أشد خطراً من شيطان الجن ؛ لأن شيطان الجن كما قال الله - عز وجل - خناس ، أي : يهرب عند ذكر الله - تعالى - أما شيطان الإنس فقد يذكر معك الله - عز وجل - وهو عازم على أن يضرك ، فإن قلت «أعوذ بالله» أكمل لك «من الشيطان الرجيم» وهو من الشياطين ، أما إذا قلت : «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فَرَّ شيطان أي شيطان الجن عند سماعها .

ويبدو أن الناس معظمهم لا يحب السهل من الأعمال والأقوال ، فهو يريد صناعة في هذا ، يضحك عليه الدجالون الذين يسألونه أن يأتي بالعجائب والغرائب من الديك الرومي ، والدجاجة الأرملة ، والزعفران ، والمسك ، ودم الفيل ، والغزال ، ولبن العصفور ، وأن يخلط هذا كله في ليلة قمرية وعلى يد غلام أو صبية دون سن البلوغ إلى آخر هذه المتاهات .

ثم إذا قال له ذلك ومثله معه أتى به وحققه وهو سعيد ، وإذا قيل له : قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، فإن ذلك يذهب عنك الشيطان قال لك : فقط ؟ لأنه تعود على الدجل والدجالين ، والخلطات العجيبة ، والأمر كما ذكرت سهل عند مَنْ وفقه الله - تعالى - لفهم دينه ، واستقبال فيوضات رحمته ، ورحمة الله قريب من المحسنين ، كما قال الله ربنا رب العالمين .

نعم ، ليراجع المرء إيمانه وتوكله حتى يتبين له أن الشيطان ليس له سلطان عليه .

إنما سلطانه - كما قال ربنا - على الذين يتولونه ، كما قال - تعالى - في سورة آل عمران : ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ ⁽¹⁾ فالشيطان يخوف أوليائه ، والشيطان له سلطان على أوليائه ، وكما قال

(1) آل عمران : 175 .

الله - تعالى - : ﴿ أَسْتَحْذِرُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانَ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ﴾⁽¹⁾ والذين استحوذ عليهم الشيطان هم جنده وحزبه ، وهؤلاء هم الخاسرون .

فأولياء الله - تعالى - لا يخافون الشيطان ، ولا يهابونه ، ولا يقيمون له مثل هذا الوزن الذين هوسَ به كثير من الناس في زماننا ، إنهم يتوكلون على الله دون سواه ، وهم بحبله معتمسون ﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾⁽²⁾ .

والعجيب أنك تسمع بعض هؤلاء الذين يحدثونك عن الجن والعفاريت ، والشياطين يقصون عليك من آيات الإيمان والتقوى ما يجعلك تقول : سبحان الله ، هذه آيات الإيمان والتقوى ، والقوم لا بد أنهم من المتقين ، فكيف تسلط عليهم الشياطين ! وأنت بلا شك وهم في حاجة إلى مراجعة ، فقد يكون ما تسمع من آيات الإيمان والتقوى مجرد شكل ، كالذي يصلي لا تفوته مكتوبة ، وهو غير متزين بروح الصلاة ، ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنفَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾⁽³⁾ وقد يصوم ورب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش ، وقد يحج فيرفث ويفسق ويجادل ، ولا رفث ولا فسوق ولا جدال وقد يكون والعياذ بالله من الذين قالوا لييك اللهم لييك ، فنودوا : لا لييك ولا سعديك ونحن في حاجة إلى أن نكون مؤمنين حقا ، حتى لا يكون للشيطان علينا سلطان .

(1) المجادلة : 19 .

(2) آل عمران : 103 .

(3) العنكبوت : 45 .

﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ .

يقول الله - عز وجل - : ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا﴾⁽¹⁾ .

قال الزمخشري⁽²⁾ : «اشتراط ثلاث شرائط في كون السعي مشكوراً : إرادة الآخرة بأن يعقد بها همه ، ويتجافى عن دار الغرور ، والسعي فيما كلف من الفعل والترك ، «والإيمان الصحيح الثابت» .

وعن بعض المتقدمين : «مَنْ لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله ، إيمان ثابت ، ونية صادقة ، وعمل مصيب» .

هذا معنى الآية الكريمة ، وكثير منا فهم معناها ، ومعنى غيرها على إرادة الآخرة بدون شرائط ، ولا شروط ، ولا قيود ، قضية مهمة خطيرة تغشى حياتنا كلها هي قضية الرغبة الكلامية دون إثبات صدق فيها .

لدينا من يفهم الحديث على ظاهره ، وهو ما رواه البخاري من قول النبي - ﷺ - لسائله عن الساعة ماذا أعددت لها ؟

فقال : ما أعددت لها كثير صلاة وزكاة ، ولكنني أحب الله ورسوله ، فقال - ﷺ - أنت مع من أحببت .

طار الناس فرحاً بهذا الحديث حين سمعوه ، ولكنهم فهموه على أنه لا بد من العمل ، للوصول إلى مكانة من يحبون من باب التشديد لا من باب الكمال ، والمطابقة الكاملة لما يعملون .

(1) الإسراء : 19 .

(2) الكشف : 443 / 2 .

وطار الناس فرحًا بهذا الحديث في زماننا حين سمعوه ولكن على النحو الذي فهموه خطأ ، وهو أن الحب وحده دون عمل يؤيده ، وبرهان يثبت أنه الكفيل الذي يضمن لهم الوصول إلى الدرجات العلا .

فنحن نريد حبا أو نعيش حبا بالكلام ، يقول العاجز الكسول الخامل لفتاة يحبها : كيف تقبلين أن تتزوجي غيري ، وأنا أحبك ؟!

ليس لديه شقة ، ولا وظيفة ، ولا مال ، ويريد أن يعيش حياة زوجية ، في بيت أبيها أو يضيق على أمه وعلى حبيبته بأن يسكن في غرفة في شقتها ، وأن تعطيه حبيبته كل ما تملك من قرط في أذنيها ، وأسورة في معصمها ، وخاتم في إصبعها ، وأن تعمل هي ويقعد هو في البيت ينتظرها وهي قادمة بالزاد والدخان ، وكفاها شرفًا وتيهاً أنه يحبها ، عجيب ، فهل هذا حب ، أم أنه تحبب عقل تحت وطأة وهم الحب ؟!

كذلك الحال عند الموظفين ، هناك من يريد أرباحًا وزيادة في الراتب دون أن يقدم عملاً ، وكأنه يقول للمؤسسة التي يعمل فيها : كفك شرفاً أنني مقيد في سجل موظفيك ، والدليل على ذلك أنك تجد الشاب يعرف كل شيء عن حقوقه ، راتبه ، بدلاته ، حوافزه ، علاجه ، إجازاته ، وغير ذلك ، ولا يعرف نصف ذلك من حقوق عمله عليه . مأساة بكل المقاييس ، ولا بد لها من علاج ؛ لأن الحياة إذا كانت مجرد كلام لم تكن حياة ، وإنما صارت هواء وفراغاً .

ويكفي أن العلماء يقولون في تعريف الإيمان : ما وقر في القلب ، وصدقه العمل ، فلا بد من العمل ، والدليل على ذلك قول النبي - ﷺ - لمن سأل عن الساعة : وماذا أعددت لها ؟

وإذا كان الرجل قد قال : ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام ، ولكنني أحب الله ورسوله ، فليس معناه أنه لا يصلي أصلاً ولا يصوم .

وقد روي أنهم قالوا للنبي - ﷺ - إن امرأة كثيرة الصيام والصلاة ولكنها تؤذي جيرانها بلسانها ، فقال : هي في النار .

وقيل له : إن فلانة قليلة الصلاة والصيام ، ولكنها لا تؤذي جيرانها ؛ فقال : هي في الجنة .

وليس معنى هذا أن الذي أو التي يحسن إلى جيرانه ، ولا يؤذيهم بلسانه في الجنة ، وإن كان تاركًا للصلاة المكتوبة ، وصيام رمضان والزكاة ، والحج الذي استطاع إليه سبيلًا ، ولم يحج .

ويفهم من هذا أن الإسلام دين المعادلة في كل شيء ، وأن للعبادة فيه روحًا ، هي التقوى ، وأن للحب فيه برهانا يدل عليه ، ولن يكون المحب صادقًا إلا إذا أثبت آية حبه عملاً ينطق ويعبر عنه قبل أن يعبر لسانه ، أحب الصديق أبو بكر - رضي الله عنه - رسول الله - ﷺ - فبكى فرحًا أنه سوف يصحبه في هجرته الغراء ، وقد أعدّ لذلك راحلتين ، وأخذ ماله النقدي ، واشترى من حر ماله العبيد الذين كانوا يضربون في الله - عز وجل - ولم تفته مع رسول الله - ﷺ - غزوة ، وكذلك أحبه الصحابة الأخيار الذين كان جهادهم في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم كما قال - تعالى - .

والله - تعالى - يقول : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ⁽¹⁾ .

فجعل - سبحانه وتعالى - آية حبه اتباع رسوله - ﷺ - واتباع رسول الله - ﷺ - يعني اتباع سنته ، وسننه - ﷺ - يعني : طريقته ، وطريقته - ﷺ - عمل وقول فمن أحب رسول الله - ﷺ - أقام الدين ، وإقامة الدين تعني إعلاء رايته ،

الفصل الثاني : فاعتبروا يا أولي الأبصار

ومناصرة أتباعه ، وفعل الخيرات التي يراها الناس ، فيسألون : مَنْ فعل هذه الخيرات ؟ فيقال : المسلمون ، دون إعلاء بمكبرات الصوت ، وتشويش ، ومعارك كلامية .

في جملة واحدة قالها النبي - ﷺ - آمراً أصحابه - رضوان الله عليهم - بأن يتصدقوا لإخوانهم اجتمع الناس عليها ، فكان هرم من الصدقات بين يديه - ﷺ - في زمن يسير ، جاء عبد الرحمن عوف وأبو عقيل الأنصاري - رضي الله عنهما - بنصف ما عندهما جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف ، وجاء أبو عقيل بصاع من تمر ، هو نصف ما عنده ، ما كان منه - ﷺ - خطب كثيرة ، ولا قصائد دعا إليها شاعره حسان بن ثابت ، وهذا شأن من يقيم الدين تكفيه الإشارة ، فيعمل العمل العظيم .

.....

﴿وَأِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ أَبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ .

يقول الله - عز وجل - : ﴿وَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ ط وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا * وَأِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ أَبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مِّسُورًا﴾ (1) .

أمر ربنا - تعالى - أن تؤتي ذا القربى حقه من المال ، زكاة ، وصدقة ، وتعهداً ، والمسكين ، وابن السبيل ، ونهانا عن التبذير ، وهو إنفاق المال في غير وجهه ؛ لأن المبذرين إخوان الشياطين أي على طريقهم ، وكان الشيطان لربه كفوراً .

(1) الإسراء : 26 - 28 .

ثم قال - عز من قائل - : ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ أَبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا ﴾ ، أي في حال الضيق ، فانظر كيف عبر عنه النظم الجليل ﴿ أَبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا ﴾ فالمسلم في حال الضيق ليس في ضيق على الحقيقة ، وإنما هو في حال تطلع إلى ما عند الله ، وهو يرجو ، والرجاء محقق إن شاء الله ؛ لأن رحمة الله قريب من المحسنين ولا شك أن أصحاب الحقوق عليه يسألونه وهو في هذه الحالة ، وعليه أن يقول لهم كما وجهه ربه - عز وجل - قولاً ميسوراً - نحو «إن شاء الله يأتي الخير قريباً وأرسل إليكم» ومثل ذلك .

فانظر إلى ما عليه كثير من الناس في هذا الزمان ، كيف يقول المرء في هذه الحالة معجباً من كلمات السوء ؛ مثل «من أين ؟ .. وكان زمان .. وأليست في عيونكم نظر ، وأنا على الحديدية ، والعبد وصاحبه» وقد يسيء إليهم بالألفاظ ، وبلسان الحال معاً ، وكأنهم هم السبب في خراب بيته ، وفي ضيق ذات يده وقد سمعت بعض هؤلاء يقول لأحد أقاربه : إنك أنت السبب في خراب بيتي ، فقبل أن تدخله كنا في رخاء ، وبعد أن دخلته صرنا في ضيق عظيم ، وأنا أحلف بأغلظ الأيمان أنك سحرت من أجلنا ، وعملت لنا أعمالاً سفلية ، فنحن لسنا غرباء عن بعض ، ومنذ طفولتي وأنا أسمع من والدي الحاج - الله يرحمه - أن أمك - ولا يجوز على إلا الرحمة - صديقة السحرة وعميلة لأكبر الدجالين الذين يعملون الأعمال السفلية ، وفي غيرها ؛ فكسر بخاطر قريبه وأساء إليه في أمه ، فهل ترى ذلك من ابتغاء رحمة الله يرجوها العبد ، الذي يكون في حال ضيق ويسأل الله أن يوسع عليه ؟!

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ .

يقول الله - تعالى - : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ ⁽¹⁾ .

معنى الآية لا تكن بخيلاً فقيراً شحيحاً ، ولا مسرفاً مضيعاً كل مالك ، فتقعد بعد ذلك ملوماً منكشفاً لا شيء يسترک ، محسوراً : من حصره السفر إذا بلغ منه . والدعوة إلى الوسطية ، وهي المنزلة بين الإفراط والتفريط دعوة هذا الدين في كل شيء ، عبادة ، وعملاً ، ومعاملة وفي الحديث الذي رواه الثقات يقول النبي - ﷺ - أحب حبيبك هونا ما ، عسى أن يكون عدوك يوماً ما ، وأبغض عدوك هونا ما ، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما ، لا سيما في الإنفاق ، فالمال عصب الحياة ، وقد روى الذهبي في سير أعلام النبلاء أن سفيان الثوري المحدث استفتاه رجل وهو يشتري فاكهة ؛ فقال له : إن سؤالك إياي لا يصلح الآن ، أما ترى عقلي ذهب مع درهمي ؟ وقد قال العلماء : إذا ذهب مال المرء ذهب معه عقله وفي صحيح عن سيدنا رسول الله - ﷺ - أنه قال : إن لصاحب الحق مقالاً .

والرجل أصبح يقلب كفيه على ما أنفق في جنته وهي خاوية على عروشها . وتأمل هذا المثل العظيم ، وهو من أمثال الكتاب الكريم حيث يقول الحق - تعالى - : ﴿ أَيُودِ أَحَدَكُمُ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ ⁽²⁾ .

(1) الإسراء : 29 .

(2) البقرة : 266 .

وما أحد من الأسوياء - والمكلفون بلا شك أسوياء - يود أن تكون له هذه الثروة، وتحترق، وليس له من ذريته مَنْ يعينه، فهم ضعفاء، وقد أصابه الكبر .

وقد روى الزمخشري⁽¹⁾ أن صبيا أتى رسول الله - ﷺ - وقال له : إن أمه تستكسيه درعًا ؛ فقال : من ساعة إلى ساعة يظهر ؛ فعد إلينا فذهب إلى أمه ؛ فقالت له : قل له إن أمي تستكسيك الدرع الذي عليك ، فدخل داره ، ونزع قميصه وأعطاه إياه ، وقعد عريانا ، وأذن بلال ، فلم يخرج للصلاة .

وقد ذكر الشهاب الخفاجي⁽²⁾ أن العراقي قال إنه لم يجد هذا الحديث في كتب الحديث ؛ لذا وجب التنبيه هنا ، وعلى أية حال إن الأمة التي جعلها الله - عز وجل - أمة وسطا ، أي عدولًا في حاجة إلى هذه الآية الكريمة لتعرف منهج ربها - عز وجل - في الإنفاق ، وإلى قول الله - عز وجل - : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾⁽³⁾ فإنها بمعنى واحد ، حيث لا يخل ولا إسراف .

وكي تدفع وهم الشيطان الذي فت في فكر كثير من الناس ، حيث قال : « اصرف ما في الجيب يأتيك ما في الغيب » دعوة إلى إنفاق جميع ما في الجيب وقل يا باسط ، وعندها يصيبك وابل من الرزق المكتوب في الغيب ، وقد ذكر المفسرون قول مجاهد لا يغرنك قول الله - تعالى - : ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ مُخْلَفٌ ﴾⁽⁴⁾ قال : ذلك في الآخرة ، وأنا لا أقول في تواضع شديد : إن الغيب قد طلع في هذا السياق ، أظهرنا الله عليه حيث قال : فقعد ملومًا محسورًا ، فأبى غيب ينتظره المؤمن بكلام الله بعد هذا ، فليأخذ كل حذره حتى لا يكون ندم بعد فوات الأوان !

(1) انظر الزمخشري : 447 / 2 .

(2) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب الخفاجي عليه : 28 / 6 .

(3) الفرقان : 67 .

(4) سبأ : 39 .

﴿ فَابْتَغُوا أَحَدَكُمْ بَورِقَكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ﴾ .

يقول الله - تعالى - : ﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ^١ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ^٢ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ^٣ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ فَابْتَغُوا أَحَدَكُمْ بَورِقَكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرُ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا * إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا^(١) .

إننا في حاجة إلى نظر ما يأتي في حياتنا وأن نعمل به في ضوء هاتين الآيتين :

1 - عدم الخوض طويلاً فيما لا نعلم ، والاهتمام بما نعلم ؛ فقد قال الفتية الذين آمنوا بربهم وزادهم الله هدى ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ ﴾ ، ثم قالوا فابعثوا أحدكم بورقكم ...

2 - وأن التزود بالمال والمتاع لا يتنافى والإيمان ، بل هو منه ، فقد قال الله - عز وجل - ﴿ وَتَزَوَّدُوا ﴾ في سورة البقرة (197) ، وقد نزلت في جماعة من أهل اليمن كانوا يحجون بغير زاد ، ويقولون : نحن متوكلون ، فإذا جاعوا مدوا أيديهم إلى الناس ، فنزلت ، وقد كان مع الفتية أصحاب الكهف ورق ، أي فضة مضروبة ، أي مال .

3 - وأن المؤمن يأكل أزكى الطعام ، وأجمله ، على عكس ما يزعم كثير من الناس الذين يرون أن هذا من الطيبات ، ومن أكله في الدنيا ، فقد عجلت له طيباتها .. وسوف يحرم منها في الآخرة وهذا ليس صحيحاً ، بدليل هذه الآية ،

(1) الكهف : 19 ، 20 .

وبقوله - تعالى - في سورة الأعراف : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾⁽¹⁾.

4 - على المؤمن أن يأخذ حذره ، وألا يفهم أن التوكل على الله معناه أن يكون أمره فرطاً ، ﴿ وَلَيْتَلَطَّفَ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾⁽²⁾ والله - تعالى - يقول في سورة النساء ﴿ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾⁽³⁾.

5 - وهذه الآية الثانية ﴿ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴾⁽⁴⁾ وأختها في سورة التوبة : ﴿ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾⁽⁵⁾.

دليل دامغ على أن المؤمنين يخاطبون بالظهور أي بالغلبة على غيرهم اقتصادياً وعلمياً وسياسياً ؛ فإن غيرهم لو غلبوا وظهروا رجمونا ولم يرقبوا فينا رباً ولا عهداً ، فلا تكفي المظاهرات ولا الشجب ولا الإنكار لما يفعله بنا أعداؤنا من السخرية بديننا ، وما أطلق عليه الرسوم المسيئة للنبي الكريم - ﷺ - .

(1) الأعراف : 32 .

(2) الكهف : 19 .

(3) النساء : 102 .

(4) الكهف : 20 .

(5) التوبة : 4 .

الفصل الثاني : فاعتبروا يا أولي الأبصار

فخير رادع لهؤلاء أن نعمل ، وأن نرقى وفي رأيي أنه ما أساء أحد إلى رسول الله - ﷺ - : «بدليل حديث البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - حيث قال - ﷺ - ألا تعجبون لما يصرف الله به الأذى عني ، إنهم يسبون مذمماً وأنا محمد» . لا شك أن الكفار حين كانوا يذمون رسول الله - ﷺ - كانوا يقولون : مذمم كذا وكذا قالت امرأة أبي لهب :

مذمماً عصينا وأمره أينا

ودينه قلينا

ولا شك أنهم كانوا يقصدونه - ﷺ - ومع ذلك قال صرف الله الأذى عني فقس على ذلك الرسوم المسيئة ، إنها ليست رسماً للرسول الكريم الذي كان كفلقة القمر ليلة التمام ، وهم يقصدونه كما كان الكفار يقصدونه ؛ فلا يقال إنهم أساءوا إليه ، وإنما يقال : إنهم أساءوا إلينا . وسبيلنا إلى دفع تلك الإساءة أن نظهر عليهم ونجن قادرون على ذلك بمقامات منحنا الله إياها من قوى بشرية وعقلية ، ومنح طبيعة ، لكن كيف تستثمر هذه القوى ونحن أقرب إلى الدجل منا إلى العلم ، وإلى الخرافة منا إلى اليقين والواقع ، نفق ما لا يحصى على الترف ، ولا نفق على العلم ونميل إلى الهوى ، ونأى عن الهدى ، اللهم قد بلغت فاللهم فاشهد .

﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ ﴾

يقول الله - تعالى - : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ * قَالُوا يَنْذَا لَاقِرَتَيْنِ إِنَّ يَا جُوجَ وَمَاجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ أَنْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا * فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا * قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ۝ (1) .

قوله - تعالى - : ﴿ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي ﴾ أي السد الذي بيننا وبين الظالمين من رحمة الله ، وكذلك المال ألا ترى إلى قول الله ربنا في كنز الغلامين ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ (2) .

وقد ذكرت هذه الآيات الكريمة من سورة الكهف ؛ لأبين أن عبداً من عباد الله - تعالى - هو ذو القرنين لما عرض عليه القوم جعلاً (أجرًا) على أن يجعل بينهم وبين المفسدين في الأرض سداً قال : أعينوني بقوة وكان ما كان من هندسته ، حيث بنى هذا السد العظيم . ما قال لهم : هيا قفوا ورائي صفًا أو صفوفاً ، وندعو جميعاً على المفسدين في الأرض كحال كثير من المسلمين اليوم «اللهم شتت شملهم ، واجعل كيدهم في نحورهم ، ويتم أطفالهم ، وعليك بهم ؛ فإنهم لا يعجزونك» هذا دعاء طيب يدعو به المسلمون وهم يجاهدون ، لا وهم ينامون ، ويكسلون ، ويؤثرون التواكل على التوكل .

(1) الكهف : 93 - 98 .

(2) الكهف : 82 .

والله - عز وجل - قدير ، وقد قال تعالى : ﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَنَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ ﴾ (1) .

وقس على ذلك أن لو يشاء الله لأنزل رزقه من السماء ولكن جعل الله أسبابا ، وقال : ﴿ فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ (2) وقد قال - ﷺ - «دعوا الناس يرزق الله بعضهم من بعض» .

.....

﴿ يَنْبَغِي خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ .

يقول الله - عز وجل - : ﴿ يَنْبَغِي خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ (3) .

يقول الزمخشري : «أي بجد واستظهار بالتوفيق والتأييد» (4) .

ياليت كل طالب علم يأخذ الكتاب بجد واستظهار فيقرأ ، ويفهم ، ويستنبط ، آية تصلح أن تكون ورقة عمل للتربية والتعليم .

ويا ليت كل مسلم مكلف يأخذ الكتاب الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه بجد واستظهار ، فيحل حلاله ، ويحرم حرامه ؛ ويعمل بمقتضاه ، أن يكون للكتاب الكريم أثره في حياته ، فإذا به يرقى إلى تحقيق معانيه ، فيحق الحق

(1) محمد : 4 .

(2) الملك : 15 .

(3) مريم : 12 .

(4) الكشف : 504 / 2 .

ويبطل الباطل ، انظر إلى الدساتير التي أصابتنا بالبلايا ، وكأنها منزلة من السماء ، تقول : هذا دستوري وهذا غير دستوري ، وهذا مستحيل ؛ لأنه يخالف الدستور ويا ليتنا نفعل ذلك مع كتاب ربنا ؛ فنقول : هذا قرآني وهذا غير قرآني ، وهذا لا يجوز ؛ لأنه يخالف كتاب الله .

.....

﴿ فَلَمَّا أَعْتَرَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ ﴾ .

يقول الله - تعالى - : ﴿ فَلَمَّا أَعْتَرَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۖ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ (1) .

على غير ما يتوهم كثير من الناس جاءت هاتان الآيتان مبينتين أن المرء إذا اعتزل الضلال وأهله وهب الله - تعالى - له من الخيرات مثل ما جاء فيهما ، قال الزمخشري في معنى ﴿ مِنْ رَحْمَتِنَا ﴾ : المال والولد ، وتكون عامة في كل خير ديني ودنيوي أوتوه (2) .

إن الشيطان يوسوس في صدور ضعاف الإيمان أنهم لو تركوا العمل في المحرمات ماتوا جوعاً ، وضاعوا وضيعوا أولادهم ، وهذا ليس صحيحاً بدليل هاتين الآيتين يقول من يعمل في الخمر ، والخنزير ، والربا : ماذا أعمل ولا أعمل ، وقد يقول : لا أحسنُ غير هذا ، وهذا غير صحيح فإن أبواب الله - عز وجل - مفتحة ، وعند الله - تعالى - مغانم كثيرة ، انظر إلى هذه الراقصة التي تقول اضطرت إلى هذه الحرفة لأربي أخواتي وأعول أُمي المريضة .

(1) مريم : 49 ، 50 .

(2) الكشف : 512 / 2 .

وليس في التعري وعرض السوأة على الأجانب من ضرورة ، إنما تقدر
الضرورة بقدرها ، وهي أن يأكل الجائع جزءاً من ميتة أو دم حتى يصل إلى بلاد
الناس فيعمل ، أو يستطعم ، أو يمد يده يسأل الناس قال - ﷺ - إن المسألة
لا تصلح إلى لذي فقر مدقع ، أو لذي غرم مفطع ، أو لذي دم موجه ، وقد قال الله
- تعالى - في سورة النور : ﴿ وَلَيْسَتَعَفِيفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ
فَضْلِهِ ﴾ ⁽¹⁾ . فالذي لا يجد سبيلاً إلى الزواج ليس مضطراً إلى الزنا ، وإنما عليه أن
يصوم ليتحلّى بأخلاق الصائمين ، وليكسر شهوته إن كانت جامحة ، ويعمل حتى
يغنيه الله من فضله ، ويجد ما يتزوج به .

والناس يقولون في هذا السياق كلاماً والعياذ بالله ظاهره أننا وحدنا في هذه
الحياة بلا رب يدبر لنا أمرنا ، ولا شك أن وضع هاتين الآيتين نصب أعيننا معناه
الإفاقة من سهو الفكر ، ونسيان الرب ، وإبصار الرشد ، فمن ترك الحرام أغناه الله
- تعالى - بالحلال .

﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ .

وفي صدر سورة طه يقول الله ربنا رب العالمين : ﴿ طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾⁽¹⁾ .

معنى قوله - تعالى - : ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ أنزلنا عليك القرآن لتسعد ، فهل فهم كثير من المسلمين أن الإسلام دعوة إلى السعادة ، وقد فصلت الكلام في هذا الموضوع في كتابي «الإسلام دعوة إلى السعادة» .

فالله لا يكلف نفساً إلّا وسعها ، وهذا الكتاب الكريم يهدي للتي هي أقوم ، أي للطريقة المثلى في كل شيء ، وهو دعوة إلى الفرح لا إلى الغم والنكد ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾⁽²⁾ وهو دعوة إلى الأمل والتفاؤل ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ؕ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾⁽³⁾ .

وما خَيْرَ - ﷺ - بين أمرين إلّا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً .

إنه دعوة إلى السعادة بالتوحيد ، فالله واحد ، بيده الملك وليس له شريك في الملك ، ولا يشرك في حكمه أحداً وهو يجيب دعاء مَنْ دعاه : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾⁽⁴⁾ ، ويكشف الضر ، ويقول للمسرّفين على أنفسهم في

(1) طه : 1 ، 2 .

(2) يونس : 58 .

(3) الشورى : 28 .

(4) غافر : 60 .

الذنوب والمعاصي ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾⁽¹⁾.

ومن حيث هو دعوة إلى العزة والكرامة ، والحرية ، والمساواة بين الناس ، وبين الذكر والأنثى ﴿بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ﴾⁽²⁾ والتكافل الاجتماعي ، والبعد عن الخبائث الضارة ، أحل الله الطيب وحرم الخبيث ، ومن حيث هو دعوة إلى العفو والصفح والتسامح والبعد عن سوء الظن ، ومعالجة ما في الصدور من شك وريبة ، إلى آخر ما اشتمل عليه من فضائل ومبادئ تحقق السعادة في أعلى صورها ، وأسمى آياتها !

حتى في تلاوته يقول - تعالى - في ختام سورة المزمل : ﴿فَأَقْرءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾⁽³⁾.

(1) الزمر : 53 .

(2) آل عمران : 195 .

(3) المزمل : 20 .

﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ .

يقول الله - عز وجل - : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾⁽¹⁾ .

خص العلم بالذكر ؛ لأنه أساس في فهم الدين الصحيح ؛ فإن هذا الدين علم ؛ ولذا وجب على المسلم أن ينظر عمن يأخذ دينه ، ولأنه كذلك أساس لبناء الملك والدولة :

بِالْعِلْمِ وَالْمَالِ يَبْنِي النَّاسُ مُلْكَهُمْو لَمْ يُنْزَ مُلْكٌ عَلَى جَهْلٍ وَإِقْلَالِ

لكن - كما ترى في البيت السابق - لا يبنى الملك على العلم وحده ؛ إذ لا بد من المال الذي يحقق العلم الكائن في العقول والكتب إلى واقع مشاهد ، تراه العيون ، من مبان ، ومؤسسات ، ومزارع ، ومصانع .

لكن كثيرًا من الخطباء والوعاظ لا يدركون قضية المخصوص بالذكر هذه ، فنراهم حين يتعرضون لهذه الآية الكريمة يقولون : ما زاد القرآن الكريم على سؤال الزيادة في العلم ماذا قال الله يا إخوتي وأحبتي ؟ قال : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ ، زدني ماذا يا أحبة رسول الله - ﷺ - ؟ زدني علمًا .

يعني : زدني علمًا ، ثم يصرخ الواحد منهم ، ويقول لم يقل : زدني مالًا ، ولا زدني جاهًا ، ولا سلطانًا ولا ولدًا !

وإنما قال زدني علمًا .

ثم يبدأ الواحد منهم في مدح العلم ، وذم ما عداه من سائر نعم الله - عز وجل - فهو يذم المال ؛ لأنه يطغي صاحبه ، ويفسده ، ويعينه على معصية الله - سبحانه وتعالى - .

(1) طه : 114 .

ويلعن الكراسي ، والمناصب ، ويلعن أهلها والحكام وكأن كل حاكم مفسد ، وكل وال ظالم ، ويذم الولد ، والزوجة ، ويقول : إن الولد سبب في السرقة من أجله ، و(نعيان همه) ، وكل ذلك بعيد عن الصواب .

فإن النص على العلم في طلب الزيادة لا يعني عدم سؤال الزيادة من غيره من المال والملك والسلطان ، والولد وقد سبق ذكر ما قاله المفسرون في قوله - عز وجل - : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِّن رَّحْمَتِنَا ۖ ﴾⁽¹⁾ أي من كل خير دنيوي وديني أوتوه ، والله - تعالى - يقول : ﴿ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ۗ ﴾⁽²⁾ وفضل الله عظيم واسع ، يشمل العلم وغيره من النعم التي لا تحصى ، وقد قال سليمان - عليه السلام - : ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ۗ ﴾⁽³⁾ وآتاه الله - عز وجل - ما سأل ومن دعاء النبي - ﷺ - اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وكان النبي - ﷺ - يدعو بعد كل طعام قائلاً : اللهم ارزقنا خيرًا منه إلا اللبن ، فإنه كان يقول : اللهم بارك لنا فيه ونحن نقول في كل شيء نتناوله « واحفظه من الزوال » و« يدوم .. اللهم أدمها نعمة » كأننا نريد الوجبة نفسها دون تغيير ، فليقل المسلم « رب زدني علمًا » ورب زدني ولا تنقصني من كل خير يعينني على طاعتك .

(1) مريم : 50 .

(2) النساء : 32 .

(3) ص : 35 .

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ .

يقول الله - تعالى - : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ^ط وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾⁽¹⁾ .

الحَرْفُ معناه : الطرف ، أي على طرف الدين ، لا في وسطه وقلبه والمعنى أن هناك من يعبد الله على طرف الدين ، فهو جاهز مستعد للنزول عنه ، وتركه ، قال الزمخشري⁽²⁾ : «وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب في دينهم ، لا على سكون وطمأنينة ، كالذي يكون على طرف من العسكر ، فإذا أحس بظفر وغنيمة قرّ ، واطمأن ، وإلا قرّ وطار على وجهه ، قالوا : نزلت في أعراب قدموا المدينة ، وكان أحدهم إذا صح بدنه ، ونتجت فرسه مهرا سريّا ، وولدت امرأته غلامًا سويّا ، وكثر ماله وماشيته قال : ما أبت منذ دخلت في ديني هذا إلا خيرًا واطمأن ، وإن كان الأمر بخلافه قال : ما أصبت إلا شرًا وانقلب» .

ألا يذكرنا ذلك بقول التي خلعت غطاء الرأس بعد أن وضعت : ما أصبت من خير منذ وضعت ، فقد فقدت فرص عمل كثيرة ، وشعرت بضيق واختناق ثم تبدأ في ذم بعض من عرفت من الشيوخ ، والأخوات المحجبات ، وتقول عرفت هؤلاء وهؤلاء على حقيقتهم (أي السيئة) لأن الحجاب قربني منهم ، وتمدح صواحبتها القدييات السافرات ، وأنهن اللاتي عرفن الدين حقًا وصدقًا بالقلب لا بالشكل ، ثم تقول هذه العبارة الغريبة العجيبة ، وهي أن الحجاب حجاب الداخل لا الخارج أي أن الملتزمة بمبادئ الدين هي المحجبة حقًا وإن كانت عارية ، والمحجبة فيما تراه

(1) الحج : 11 .

(2) الكشف : 7/3 .

العيون ، التي فيها وفيها عارية فلو أصابت مثل هذه التي أقيمت لها حفلات التهنئة بمناسبة وضعها غطاء رأس «الحجاب» لو أصابت أموالاً وأعمالاً لاطمأنت لهذا الدين وهذا الالتزام ، لكنها أصيبت بخسارة واكتئاب ، فخلعت ما سترت به رأسها ، وعادت سيرتها الأولى .

ناهيك بمن تقول : إنها حين وضعت حجاب الرأس على رأسها ، ونظرت في المرأة وجدت نفسها عجوزاً دمية ، فلم تستطع ، ناهيك بمن يقول - وقد سبق ذكر ذلك - إنه عندما التزم بمبادئ الدين والحلال جرى له من السوء الكثير ، وغير ذلك ممن يعبدون الله على حرف ، ولو علموا أن الاختبار تمحيص لما في القلوب ، وأن الله رازق عباده المؤمنين خيراً وأن هذا الخير قريب بلا ريب لما توهّموا ما توهّموه فخسروا حين انقلبوا على أعقابهم الدنيا والآخرة ؛ نعم خسروا الدنيا ؛ لأن انقلابهم لن يأتي بخير ، وقد قال الله - تعالى - : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَعِنَ اللَّهُ ﴾⁽¹⁾ والله تعالى رب العالمين ، يرزق المؤمن والكافر ، ورزق المؤمن غير رزق الكافر ، فالمؤمن يستمتع برزقه ويكفي له ما عند الله ، وهو خير وأبقى ، والكافر تعجل له طيبات الحياة الدنيا ، وما له في الآخرة من نصيب .

﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ .

يقول الله - تعالى - : ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ * لَوْلَا جَاءَ وَعَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ * وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسِبُونَهُ هَيئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ * وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بَهْتَنٌ عَظِيمٌ * يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١﴾ .

هذه الآيات يجب أن تكون نصب أعين المسلمين في كل مكان وزمان خصوصاً مسلمي هذا الزمان الذين يحسبون الكلام في الأعراض هيئاً ، وهو كما قال الله - تعالى - ﴿عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ .

وتثير هذه الآيات قضايا مهمة :

1 - حسن الظن بالمؤمنين والمؤمنات ، حتى يثبت العكس ، ولا يثبت إلا ببينة ، كما قال الزمخشري⁽²⁾ على عكس ما هو شائع من سوء الظن .

(1) النور : 12 - 19 .

(2) الكشف : 54 / 3 .

2 - والذين لا يأتون بالشهداء عند الله ، وفي أحكام شريعته أي عند الله ، هم الكاذبون .

3 - وأنه لولا فضل الله - تعالى - علينا في الدنيا والآخرة لمسنا فيما نفيض فيه عذاب عظيم .

4 - وأن الذي نحسبه هيناً هو عند الله عظيم ، فيجب أن نعظم ما عظم الله ربنا ، وألا نجعله هيناً ، ما دام عنده - عز وجل - عظيماً .

5 - ونفي الكون العظيم في هذه الآيات وفي غيرها ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بَهْتَنٌ عَظِيمٌ ﴾⁽¹⁾ .

فتأمل قول الله - تعالى - : ﴿ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا ﴾ أي ما ينبغي أصلاً من قريب أو بعيد أن نتكلم بهذا ، فكيف كان ، وهو مما ينبغي ألا يكون ؟!

6 - وأن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة .

وما أكثر الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا في هذه الأيام ، وهذا ليس في مجال الخوض في الأعراض فحسب ، وكفى به ضلالاً مبيناً ، وإنما في كل شيء فعند هؤلاء :

1 - لا أحد يعمل عملاً لوجه الله .

2 - ولا أحد عنده ضمير في عمله .

3 - ولا أحد يعين أحداً على تكاليف معيشه .

4 - وأن الأب لم يعد أباً ، والأم لم تعد أمّاً ، والأخ لم يعد أخاً ، والصديق لم يعد موجوداً ، فهو من المستحيلات الثلاثة ، ليس في حاجة إلى أن يكون رابعاً .

الغول والعنقاء ، والخل الوفي .

5 - وأن الجيران أسوأ أناس .

6 - وأن خاطب الفتاة الغنية طامع في مال أبيها الذي ورثته عنه .

7 - وأن الراغبة في الزواج من غني لا تحبه لذاته ، وإنما تحبه لماله فقط .

إلى غير ذلك ، فهل هذا يقبل على وجه التعميم ؟!

.....

﴿ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آزِجُوا فَآزِجُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾ .

يقول الله - تعالى - : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ * فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آزِجُوا فَآزِجُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿⁽¹⁾﴾ .

من آداب الإسلام الاستئذان ، وقد جاء في الحديث إنها جعل الاستئذان من أجل النظر ، ومن أهم أسباب القطيعة بين الأرحام سوء الزيارة ، فإن من الأقارب من يظن أن عتبة بيوت أرحامه من حقه ، فهو غير مريح في زيارته يقتحم الأبواب المغلقة ، ويفسد في المطبخ ، ويستعمل الأجهزة المنزلية دون استئذان ، ويتحرك كأنه في بيته ، بل إنه في بيته يكون أكثر هدوءاً والتزاماً ، فإذا زار أرحامه وأقاربه عربد ، وأفسد ، وضيق عليهم .

ويقول الله - تعالى - : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَبَ لَكُمْ ﴾ باستثناء ما إذا كان فيها حريق ونحوه ، ثم يقول - تعالى - : ﴿ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾ .

لا شك أن الرجوع أفضل من الوقوف على الأبواب ، والإلحاح في الاستئذان ، ورفع الصوت بالنداء ، فإن ذلك كله مما يتعارض والمروءة ، التي يتحلّى بها المسلم ، وقد قال الله - تعالى - في قوم من بني أسد : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُتَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ⁽¹⁾ .

قال الزمخشري ⁽²⁾ : « كفى بقصة بني أسد زاجرة ، وما نزل فيها ، ثم قال - رحمه الله - : « الرجوع أطيب لكم ، وأطهر ؛ لما فيه من سلامة الصدور ، والبعد من الريبة ، أو أنفع ، وأنمى خيراً » وكذلك قال البيضاوي والشهاب الخفاجي ⁽³⁾ وغيرهما ولعلك رأيت بعض السلوكيات غير الطيبة في هذا السياق ، وإصرار بعض الزائرين على دخول البيوت دون موعد سابق بينهم وبين أصحابها ، وترى المرء يقول لصاحبه : وجدت نفسي ماراً بالقرب منكم فقلت أزورك ، وكأنه من الذين قيل فيهم :

تَمْرُونِ الدِّيَارَ وَلَمْ تَعُوجُوا كَلَامُكُمْوَا عَلَيَّ إِذَا حَرَامٌ

فهؤلاء كانوا أحبة ، ومثل هذا الذي وجد نفسه يمر في شارع صاحبه ليس من الأحبة ، بل من الثقلاء وللبیوت حرمة يجب صونها ، حيث إنها مستقر الناس وعوراتهم ، ومواضع راحتهم ، وتأديب أولادهم ، فكيف يقتحمها زائر وجد نفسه قريباً منها !

(1) الحجرات : 4 .

(2) الكشف : 60 / 3 .

(3) انظر عناية القاضى وكفاية الراضى على تفسير البيضاوى : 6 / 371 .

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ .

يقول الله - تعالى - : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾⁽¹⁾ .

كان لابد أن تكون هذه الآية الكريمة معنا في هذا الكتاب لما يتوهمه كثير من الناس ؛ من أن انتظار المرء جميع أفراد أسرته حتى يأكلوا جميعًا من الواجبات .

وقد أقام شاب الدنيا على زوجته الشابة لأنه عاد من خارج بيته قبيل الفجر وحين سألها إحضار عشاءه وأحضرتة ، قال لها : ألن تأكلي معي ؟ قالت : سبقتك ؛ قال مع مَنْ قالت : وحدي ، قال : أما انتظرتني ؟ قالت : كنت جائعة ، قال : كانت أمي تنتظر أبي ، حتى ولو ماتت جوعًا ورمى بالطعام ، ولم يأكل ، وكان ما كان من مأساة ، وكذلك الضيف الذي يظن أن عدم أكل مضيفه معه إهانة له ، وليس ذلك بصواب فقد رفع الله الحرج عنا ، فما علينا من جناح أن نأكل جميعًا ، وما علينا من جناح أن نأكل متفرقين .

ولا شك أن الاجتماع على الطعام سنة مندوبة ، ومخالفتها لغير ضرورة بدعة ، وفيها تفصيل ذكره الشهاب الخفاجي في حاشيته⁽²⁾ ، وخلاصته أن الناس يختلفون في محبة الطعام وكراهيته فمن أحبه كره من يشاركه فيه لشربه ، وفيها أن يجوع واحد وأهله غائبون ، ومنها أن يكون المضيف على شبع ، وفيها اختلاف العادات في الطعام ، أي اختلاف طرق الناس في تناوله ، والدين واسع ، ورحمة الله أوسع ، فليأكل كل مشتهاه ، كما قال أبو الهيثم التيهاني للنبي - ﷺ - وقد قال عمر - رضي الله عنه - لضيفه : لولا أني اليوم صائم لأكلت معك .

(1) النور : 61 .

(2) انظر : حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي : 40 / 6 .

وعلينا ألا نضيق واسعاً وسعه الله - عز وجل - ففتنعت ، واتبعت أسوأ العادات ، ونصر على شيء فيه سعة ، والحياة جميلة ، كما أراد الله لها أن تكون ، ونحن الذين نصنع القبح فيها .

.....

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ .

يقول الله - تعالى - : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾⁽¹⁾ .

ما أشد حاجتنا معشر المسلمين إلى نور هذه الآية وغيرها من الكتاب الكريم ؛ حيث قال الله في تلك الآية الكريمة ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ إنها قضية الإخلاص متى تحققت تحققت نتيجتها ، أي متى كان جهادنا لله وفي الله ، لا في سواد أعين الناس ، ولا من أجل الرياء والسمعة كانت النتيجة هداية لا ضلالة وخيراً لا شراً ، وتوفيقاً لا إخفاقاً .

إنني أدعو نفسي والناس إلى مراجعة مقاصدنا والاستغفار من ذنوبنا ، ومن ذنوبنا أننا نعمل الأعمال مشوبة ، غير خالصة تماماً ، والنتيجة كما نعلم ، نلقى جوداً ونكراناً وسوءاً ، ونضع وجوهنا آخر الأمر في أكفنا ، وتقتلنا الحشرات ، ونعتصر ألسنا وحسرة ، ونشكو الناس والزمان ، ونعاني كل صفوف الحرمان ، والسبب أننا لم نجاهد إذ جاهدنا في الله - عز وجل - ولم نطعم إذ أطعمنا لوجهه - عز وجل -

(1) العنكبوت : 69 .

أخطاء شائعة في تفسير القرآن الكريم
وإنما جهادنا دَخَلَ ، وفي عملنا شيء والدليل على ذلك تلك النتيجة السيئة التي
لقيننا ولقيناها .

ونحن نعتقد فيها نعتقد هذا المعنى : صدق الله ، وكذبت أعيننا .

روى مالك في الموطأ أن عيسى عليه السلام وجد رجلاً يسرق ، فسأله :
لم سرقت ؟ فقال : والله الذي خلقتك ما سرقت ؛ فقال عيسى عليه السلام : أصدق
الله وأكذب عيني .

ومما قاله العلماء في تفسيره أنه رآه يسرق على الظاهر ، لكن المال كان ماله ، فهو
صادق إذ قال : والله الذي خلقتك لم أسرقك .

نعم نصدق الله - تعالى - ونكذب أنفسنا ، وقد صدق الله ربنا ؛ إذ قال :
والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ والإحسان في كل شيء ، وهو كما
روى البخاري من حديث جبريل الذي رواه عمر - رضي الله عنه - أن تعبد الله
كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، فإن كنت كذلك فالله معك معية اطلاع ونصر
وتأييد .

﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

يقول الله - تعالى - : ﴿ أَلَمْ غَلِبَتِ الرُّومُ ﴾ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بَضْعِ سِنِينَ ^١ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعَدَ اللَّهُ لَا تُخْلَفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ^(١) .

تثير هذه الآيات المباركة قضية من أهم القضايا وهي الفرح لفرح الغير ، خاصة إذا كان هذا الغير ذا صلة بنا ، فإن الروم الذين غلبوا وعد الله بأنهم سيغلبون في بضع سنين ، وعندها يفرح المؤمنون ، فما سبب فرحهم ؟ قال العلماء : لأن الروم أهل الكتاب فهم أقرب إلى المؤمنين من الفرس الذين يعبدون غير الله - تعالى - .

وتثير الآيات قضية من أهم القضايا هي البحث عن زوايا قد تكون بعيدة عن من يوفقه الله ، فلا يرى في غيره شيئاً يربطه ؟

أما من وفقه الله - تعالى - ورحمه فهو يرى زاوية من زوايا القضية ، لا يراها غيره ، ولتوضيح ذلك أقول : إن الرجل قد يكره في المرأة خلقاً ؛ فيحب فيها غيره فإذا الذي أحبه فيها يطغى على الذي يكرهه ، فيحسن إليها ويبقيها .

بخلاف الذي لا ينظر إلا إلى تلك الزاوية البغيضة ، فإذا به يراها متراكمة بعضها فوق بعض فإذا بهذه المتراكمات تصبح كالجبال الراسيات ، فتحجب عنه سائر الزوايا ، ومنها زاوية لو رآها لفرج الله عنه كربه ، وكشف ما به من غم وهم ، ورزقه من لدنه رزقا حسناً .

(1) الروم : 1 - 6 .

وقد يسافر المرء ، فلا يرى غير المعاناة في طريقه فإذا به يسخط ، وقد يتردد ، ويعود ، ولو أحسن النظر لوجد فوائد في السفر تهون عليه متاعبه فإذا به يتطلع إلى ثمرات طيبة ، وغايات نبيلة ولولا التطلع إلى الغايات ما صبر طالب علم على طلبه وما صبر عابد على إسباغ الوضوء على المكاره بل ، وما صبر مجاهد في سبيل الله على الجهاد وهانت في الله نفسه .

.....

﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةٌ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾ .

يقول الحق وتعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ (1) .

طفولة ضعيفة ثم شباب ثم كهولة ضعيفة وشيبة مَنْ يتدبر هذه الآية الكريمة يدرك أن القوة بين ضعفين ، فهي بمثابة الجملة الاعتراضية بين متلازمين كالمبتدأ والخبر ، والفعل والفاعل كما يقول اللغويون وكما تكون الجملة الاعتراضية على خلاف الأصل في الكلام هكذا يكون الشباب ، فالأصل في الكلام اتصال الخبر بالمبتدأ ، ففصل بينهما الاعتراض في نحو قولك محمد - هداك الله - قائم ، أو أنا - هديت الرشد - عالم . والأصل في الإنسان الضعف ، أوله وآخره ، وفصل بين الضعفين شباب ، فهو فرصة عظيمة لا تعوض ومن ثم أقول في وصف هذه الآية التي اخترت في هذا الكتاب : إن الدين لا يقوم به خير قيام إلا الشباب ، والدليل على ذلك أن الطفل غير مكلف وأن الشيخ ذو علل وأمراض وأعدار في الغالب فمن بقي مكلفاً قادراً على أداء ما كلف به الشرح على وجهه ؟ لم يعد إلا الشباب .

فأي الشباب فهم ذلك ؟ وهل المعنيون بتربية الشباب يدركون ذلك ، ويعدون له العدة ، أم أن الجميع في غفلة خاصة الآباء والأمهات ، والمربين والمسؤولين الذين

لا يعنون إلا بمراكز شباب وأندية ليس لها من خطة تربوية صحيحة لبناء الشباب .
كم من أب وأم يزعمون أن ابنهما الشاب في مقتبل العمر ، وأن العمر أمامه طويل ،
ويعدان ذلك مسوغاً للهوه وعبثه ، ولعبه بالبنات وشربه المخدرات !

حتى إذا هلك في حادث سيارة ندما على ما كان ، وقد هلك شاب في السابعة
والعشرين من عمره ، وكنت من الذين عزوا أمه العجوز التي قالت لي : إنها
لا تبكي عليه ، فهذا قدر الله وإنما تبكي له ؛ لأنه لم يركع لله ركعة ، قلت لها بهدوء ،
وأين كنتِ؟ فقالت : كنت أقول ما زال العمر أمامه ، وسوف يهديه الله وكل
الشباب المفرطون ، وغداً يعقلون .

وتلك هي العقيدة الفاسدة ، أن يعتقد الناس أن أبناءهم وبناتهم أمامهم العمر
الطويل ، وأنهم سوف يعوضون ما فاتهم ، وأن الله - تعالى - سوف يهديهم سبل
الرشاد .

ومن المسائل المهمة في تلك القضية مسألة ادعاء أن الشباب لا بد أن يخطئ ،
ولا بد أن يعبث ، ولا بد ولا بد . ولست أدري من أين جاء الناس بلباد هذه ، وقول
من كان يسألني يوماً عن شيء ، فقال لي : أنا شاب - والشباب طبعاً يفعل المنكرات ،
حتى إنني قلت له : ولم التعبير بـ «طبعاً» ، الصواب أن تقول : الشباب طبعاً يقيم
لا بد أن يقيم الدين ، فمعاذ بن جبل أعلم الأمة بالحلال والحرام لم يكن تجاوز
العشرين ، وزيد بن ثابت كذلك وهو من كتاب الوحي ، تعلم لغة يهود في خمسة
عشر يوماً ، وأبو سعيد الخدري جاء ليجاهد مع النبي - ﷺ - وهو ابن سبعة عشر ،
عرضه أبوه وقال للنبي - ﷺ - لا يغرنك صغر سنه إنه عبل العظام ، أي قويا
شديد ، والأسماء كثيرة ، والشاهد أن الذين كانوا حول رسول الله - ﷺ - في
العمل والعلم والجهاد هم الشباب ، وأهل الكهف فتية آمنوا بربهم وزادهم الله

هدى ، والله - تعالى - يقول : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾⁽¹⁾ ويقول سبحانه : ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾⁽²⁾ . وفي حديث السبعة الذين يظلمهم الله بظلمه يوم لا ظل إلا ظله : وشاب نشأ في عبادة الله ، فعلينا أن نراجع تلك القضية وأن نُغنى بالشباب ؛ لأنهم عمُد الأمة كما أن الصلاة عماد الدين .

.....

﴿ وَلَا مُسْتَنْسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ .

يقول الله - تعالى - ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَبْظِرِينَ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَنْسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنْ الْحَقِّ ﴾⁽³⁾ .

كانت أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - تقول حسبك بالعقلاء أن الله - تعالى - لم يحتملهم فقال : « فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث » .

وروى كل خلف عن سلف أن المرء يتحمل نقل جبل على كاهله ، ولا يتحمل إنسانا ثقيلاً على قلبه .

وسبب نزول الآية معروف وهو أن النبي - ﷺ - حين دعا الناس إلى وليمته المباركة على أم المؤمنين زينب بنت جحش - رضي الله عنها - فأكلوا ، وظلوا

(1) يوسف : 22 .

(2) مريم : 12 .

(3) الأحزاب : 53 .

يتحدثون ، إلى درجة أنه - ﷺ - خرج ومعه أنس بن مالك - رضي الله عنه - خادمه ؛ ليشعرهم بأن عليهم أن يتركوه الآن ؛ فقد طعموا ، ولكنهم لم يدركوا تلك الإشارة ، فنزلت الآية .

والعبرة كما يقول المفسرون بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب ؛ فعلى المسلم أن يكون خفيفاً في زيارته لطيفاً في تعامله مع إخوانه ، لاسيما عائد المريض الذي يزوره سنة عن رسول الله - ﷺ - وهو مأجور عليها ، عليه أن يكون كما ذكر ابن عبد البر خفيفاً في زيارته ، كرد الطرف بالعين ، يدخل فيسلم ، ويدعو ، ويسأل عن مريضه ، ويقول كما كان رسول الله - ﷺ - يقول : « طهور إن شاء الله ، لا بأس عليك » ويفسح له في الأجل ، يعينه ويعين أهله على تكاليف علاجه إن كانوا عاجزين ، وكان قادراً ، ثم ينصرف مأجوراً مشكوراً إن شاء الله وهكذا إن زار ناساً في بيوتهم على أدب الإسلام في الزيارة ، فإذا أكل طعامهم انصرف حتى لا يكون ثقیلاً عليهم ، اللهم إن كان حبيباً لمزوره ، يؤنسه بقاؤه معه ، وسماع حديثه فهذه مسألة مستثناة عند العلماء ، والإسلام حريص على دوام الصلة والمودة والمحبة بين الناس ، والتخفيف من أسباب دوام ذلك .

﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ .

يقول ربنا - تعالى - : ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ⁽¹⁾ .

كم يجد المتدبر الآية الكريمة من استقرار الطمأنينة في نفسه بسبب نورها ، ووضوح معناها ، وعظيم أثرها وفي البخاري أنه - ﷺ - كان يقول عقب كل صلاة مكتوبة ثلاث مرات : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » .

والآية والحديث على منوال واحد واتفاق ، فلا مانع لما أعطى الله - عز وجل - ولا معطي لما منع ، سبحانه ، هو يعطي ويمنع ، ويبسط ويقبض ، ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ ⁽²⁾ .

إن من يتدبر هذه الآية لا يقول : فلان قطع عيش فلان ؛ فإن أحداً لا يستطيع أن يقطع عيش أحد ، وإنما هو سبب فيه بلا شك إما لغناء من قطع عيشه ، وإما لإدارة وحكمة يعلمها الله .

وقد قال أحد الأمراء لعبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - لو أرسلت إليك بكذا ألف ، أتقبلها ؟ أم تردها ؟ فقال عمر : لا أرد رزقاً رزقني الله على يديك فتأمل هذه العبارة ، وما تستر عنه من العين استقر في نفس ابن عمر أن الأمير لا يعطي ، وقد روى البخاري وغيره عن سيدنا رسول الله - ﷺ - أنه قال : « إنما أنا قاسم والله - عز وجل - يعطي » .

(1) فاطر : 2 .

(2) الذاريات : 23 .

فمن سره أن يعطيه الله - عز وجل - على يد عبد من عباده فليسأل الله الذي بيده ملكوت السموات والأرض : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (1) .

وكم تأملت هذا الحديث الشريف الصحيح الذي رواه البخاري وغيره ، كيف كان - ﷺ - يقول ذلك خمس عشرة مرة في اليوم والليلة ، إنه علاج للنفس الراغبة في الاطمئنان على رزقها ، والله - تعالى - يقول : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (2) .

ثم إن هذه الآية خير علاج للذين يزعمون أن هناك أعمالاً ، وسحراً ، و(عكوسات) في أرزاقهم مالا ، وزوجاً ، وترقية ، وغير ذلك أقول لهؤلاء : إن الله يقول : ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (3) . والتعبير بـ ﴿لَا﴾ التي هي عندنا معشر اللغويين نافية للجنس ، يدل على أنه لا ممسك من ملك وجن وإنس وساحر ، وكذلك لا مرسل من ملك وجن وإنس ، إذا فتح الله فلا ممسك وإذا أمسك الله فلا مرسل ، فكيف تسحرون وتزعمون أن بيد أحد من الخلق شيئاً من النفع والضرر .

يقول الله تعالى فيها : ﴿ يَتَأَيُّمُ النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ (4) تؤكد ما قبلها ، فإذا اعتقدنا ذلك فلا غالب لنا من وهم يدحضه الحق .

(1) آل عمران : 26 .

(2) هود : 6 .

(3) فاطر : 2 .

(4) فاطر : 3 .

﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ .

يقول الله - تعالى - : ﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ ⁽¹⁾ وفي ذلك قصة يونس - عليه السلام - وقول الله - تعالى - : ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ .

معنى هذا أن التسبيح رحمة ، وكان سبباً في نجاته ، فهل تغير التسبيح ؟
الجواب : نعم ، صار مجرد كلمات ، وعدد ، ولكن روح التسبيح غابت ، إن نبي الله يونس - عليه السلام - سبح الله كلاماً واعتقاداً ، حيث قال كما جاء في سورة الأنبياء : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ⁽²⁾ وقد يقول امرؤ منا القول نفسه ، ولكن النتيجة مختلفة والواقع يشهد بذلك ، وما ذلك إلا أنه قالها بلسانه والقلب غافل ، فما أكثر الذين يقولون : « لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين » وهم لا يشعرون بما يقولون ، وتلك مأساة .

وقس عليها كل دعاء صحيح ، وكل ما قال فيه السادة العلماء والأولياء « مجرب » فالدعاء لا يجرب ، إنما جربه من كان حاله كحال الأول الذي استجيب له ، كما قيل : « هذه هي الفاتحة فأين عمر ؟ » لما قيل : إن عمر - رضي الله عنه - قرأ الفاتحة على رأس مريض فشفاه الله ، وكما جاء في حديث البخاري أن أبا سعيد الخدري قرأ الفاتحة على مريض فشفاه الله ، فكن عمر ، وكن أبا سعيد وعندئذ تنجح التجربة ، فالدعاء والقراءة ليسا من المواد الطبيعية التي تكون على منوال

(1) الصفات : 142 - 144 .

(2) الأنبياء : 87 .

واحد مع أي أحد ، كالمعادلة والنتيجة الكيميائية لا تتغير بتغير مَنْ يجربها ، وإنما سرها في الداعي ، والقارئ ، والله - عز وجل - يقول في سورة المائدة : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾⁽¹⁾ .

فإذا أردت أن ينجيك الله من الكرب فسبح أي نزه الله - تعالى - واتهم نفسك ، ولا تكن من الذين يقولون سبحان الله وبحمده ، وهم يقولون معها صراحة أو ضمنا : يا رب ماذا فعلت أنا حتى تبلوني بكذا ؟ فهذا ليس تسبيحا ، ولا ينتظر قائله نجاة من كرب ، قال موسى - عليه السلام - في آية القصص : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرْتَهُ ﴾⁽²⁾ .

.....

﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ .

يقول الله - تعالى - : ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ إِلَيَّ قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾⁽³⁾ .

والآية قبلها يقول فيها ربنا - تعالى - : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾⁽⁴⁾ .

(1) المائدة : 27 .

(2) القصص : 16 .

(3) غافر : 85 .

(4) غافر : 84 .

وما أود ذكره هنا هو أن هناك وقتًا لا ينفع فيه الإيمان ولا التوبة ، وهو وقت حلول الأجل والقضاء بالعذاب ، نسأل الله العفو والعافية والسلامة قبل الداء ، والعافية قبل الابتلاء والدعاء في عموم الأوقات التي يستجيب الله - عز وجل - فيها ، بل نسأله بها ذكره سيئويه ، عليه رحمة الله «اللهم أشركنا في دعوى المسلمين» .
 إن الله - عز وجل - يحدثننا عن عاقبة الذين من قبلنا ، كانوا أكثر منا قوة وآثارا في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون .

ثم قال الله - عز وجل - : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ ⁽¹⁾ ما ينفع أن يقول المرء عند رؤية البأس وقيام القيامة : آمنت .

قال فرعون : آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين .
 فماذا قال الله - تعالى - ؟

قال الله - تعالى - : ﴿ ءَالْأَنْفِ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ⁽²⁾ .

وكذلك الذي يقول : «تبت إلى الله» عند الموت قال - تعالى - : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يُتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَارَبَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ إِلَى اللَّهِ وَالَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ ⁽³⁾ .

(1) غافر : 84 .

(2) يونس : 91 .

(3) النساء : 17 ، 18 .

فانظر إلى قوله - تعالى - : ﴿ إِنِّي تُبْتُ أَلَقْنَ ﴾ فماذا قبل الآن ؟! وخلاصة القول أن الحياة فرصة للتوبة وعمل الصالحات ، فهنيئاً لمن لم يضيعها حتى إذا حضره الموت ، وغرغرت كما جاءت في الحديث قال : «تبت الآن ، فعندئذ لا تقبل التوبة والعياذ بالله .

.....

﴿ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ﴾ .

يقول الله - عز وجل - مخاطباً رسوله - ﷺ - : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرْنَا وَلَوْ أَلْعَزِمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلِّغْ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ ⁽¹⁾ .

السبب الذي جعلني أذكر هذه الآية الكريمة في هذا العمل أني ما سمعت أحداً من الوعاظ ولا من كبار العلماء يذكرها في مناسبة دينية أو غيرها . ويقول : إن الله - تعالى - قال لرسوله - ﷺ - : ﴿ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ﴾ .

وإنما جميع المتحدثين يقولون : دعا نوح على قومه فقال : رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ، وأما سيدنا محمد - ﷺ - فقد نزل ملك الجبال ، وقال له : إن أردت أن أطبق على أهل مكة الأخشين فعلت فقال : اللهم اهد قومي .

فهلا قال ذلك القائل .. لأن الله - عز وجل - نهاه على أن يستعجل للكافرين العذاب وأمره بالصبر ؟!

فقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ﴾ والنبى - ﷺ -
يتبع الوحي الذي ينزل عليه وهذا لا ينقص من قدر رسول الله - ﷺ - ولا من
قيمته ، كما لم ينقصه قوله - كما أمره ربه : ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾⁽¹⁾ .

بل إنه يزيده - ﷺ - تشريفاً لأن الامتنان لأمر الله مناط كل تشريف ، وسبب
كل خير ، فالفضل في عدم الاستعجال مرجعه إلى الله - عز وجل - الذي قال
لرسوله - ﷺ - ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ هُمْ﴾ .

كما أن الفضل لله في لين رسول الله - ﷺ - ألا ترى إلى قوله - تعالى - :
﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ
فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
الْمُتَوَكِّلِينَ﴾⁽²⁾ .

وصدق الله العظيم إذ يقول لنبىه - ﷺ - : ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ
عَظِيمًا﴾⁽³⁾ لذا كان علينا ألا ننسى فضل الله - تعالى - على رسوله ، وألا ننسى
فضله - تعالى - علينا .

(1) الأنعام : 50 .

(2) آل عمران : 159 .

(3) النساء : 113 .

﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ .

يقول الله - تعالى - : ﴿يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾⁽¹⁾ .

لا شك أننا جميعاً على مستوى الفرد ، وعلى مستوى الأمة في أشد الحاجة إلى تدبر هذه الآية ؛ حيث إنها من قبيل الشرط ، واللغويون يقولون إن جواب الشرط معلق على فعله بمعنى أنه إذا حصل الشرط (فعله) حصل الجواب ، فإن قلت : إن تجتهد تنجح كان النجاح معلقاً على الاجتهاد ، فإن كان منك اجتهاد كان لك نجاح ، وإن لم يكن منك اجتهاد لم يكن لك نجاح ، وكذلك الحال : إن نصرت الله - تعالى - نصرك الله .

فإن قلت : كيف أنصر الله ؛ فالله - عز وجل - ليس في حاجة إلى من ينصره فالجواب : أن الكلام على حذف مضاف ، كما هو الحال في ذكر الله ، وقد سبق بيانه ، وكما هو الحال في قوله - تعالى - : ﴿وَسَقَلِ الْقَرْيَةُ﴾⁽²⁾ أي : واسأل أهل القرية ، فحذف المضاف ، وأقيم المضاف إليه مقامه ، والتقدير في آية محمد : إن تنصروا دين الله ينصركم الله ويثبت أقدامكم .

وإن قلت : وما معنى نصر دين الله عز وجل ؟ فالجواب : اتباع تعاليمه وتنظيم شعائره .

والعمل على هداه ، وسنة رسوله - ﷺ - والعجيب في تردد المسلمين في ذلك تردداً يدعو بالضرورة إلى مراجعة حقيقية ، أو بلفظ آخر : إلى توبة نصوح مما نحن

(1) محمد : 7 .

(2) يوسف : 82 .

عليه . ألسنت ترى أننا نقدم ما عليه الناس على ما عند الله ورسوله ، والله - عز وجل - يقول في صدر سورة الحجرات : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾⁽¹⁾ فنحن قول كذا وكذا ، وكيت وكيت ثم نقول حتى إن الله يقول ، فتؤخر كلام الله وما ينبغي لنا أن نؤخره ، وقد قال العلماء : إن البخاري - عليه رحمة الله - لم يضع مقدمة لجامعه الصحيح بسبب ذلك ، أي حتى لا يقدم بين يدي رسول الله - ﷺ - .

ونحن نعين أبناءنا الطلاب على الغش ، قالت لي إحدى المعلمات: كنت أراقب في الامتحانات وأغشش الطلاب ؛ لأنهم كانوا يصعبون عليّ ؛ حيث أراهم يكون لأنهم عاجزون عن الإجابة ، فهل هذا من نصر الدين الذي ورد فيه حديث البخاري «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا»؟! وهل من نصر الدين أن نخرج الطلاب ونحن على علم أنهم زيوف ، كالأوراق المالية (المزورة) ، ونحن نجامل الناس على حساب الدين وفي مسامعنا قوله - ﷺ - : «لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» .

ثم تبقى كلمة أخرى مهمة في نصر الدين ، وهي الإعداد ، وأعني به كل إعداد من شأنه أن يرفع راية الدين ، وشوكة المسلمين ، قال الله - عز وجل - : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ؕ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوفَ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾⁽²⁾ .

(1) الحجرات : 1 .

(2) الأنفال : 60 .

وليس من نصر الدين أن تَنْزِي بِزِيَّهِ ونهمل معناه فإن الله - تعالى - يقول : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۗ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ۖ ﴾⁽¹⁾ .

وإقامة الدين معناها إعلاء كلمته ، والنسج على منواله ، وعدم تفریغه من محتواه بأن نصلي غير منتهين من الفحشاء والمنكر ، وأن نصوم غير مغلين بآداب الصيام ، وأن نحج رافئين وفاسقين ومجادلين ، وأن نتصدق مؤذنين ومانين ، وأن يرانا الناس بزیه لا بسنته ، فإن عاملونا وجدونا أبعد ما نكون عنه .

﴿ لِتَعَارَفُوا ﴾ .

يقول الله - تعالى - : ﴿ يَتَأَيُّمُ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۖ ﴾⁽²⁾ .

وقفنا طويلاً ، وليس علينا من بأس في ذلك - عند جزء من هذه الآية وهو قول ربنا - تعالى - : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ ﴾ ويا ليتنا عرفنا التقوى حقيقة لا ادعاء وعملاً لا قولاً ، لكننا لم نقف عند قوله - سبحانه - : ﴿ لِتَعَارَفُوا ﴾ أي لتتعارفوا ، ويحسن بنا أن نقف عنده طويلاً ، حيث صارت سبل التعارف بين الناس ميسرة ، حيث الاتصالات السريعة والإنترنت ، وغيرها وصرت تسمع

(1) الشورى : 13 .

(2) الحجرات : 13 .

أخبار الدنيا في طرفة عين ، بل تشاهدها أيضًا ، ما عاد يعز عليك أن ترى ما يحدث للأطفال في غزة من قبل الصهاينة ، ولا ما يحدث في العراق ، فماذا فعلنا إذ عرفنا ؟ وما عاد يعز عليك أن تعرف أخبار البائسين وسكان المقابر ، فماذا فعلت من أجلهم ؟ وقد سمعت ترجمة لرئيس وزراء بريطانيا (توني بلير) حيث قال : إن بعض رؤساء العرب يأتي إلينا ليلتقط معنا صورًا ، ويثبت لشعبه أنه يعرفنا . كلمة قاسية ، لكنها تعبر عن تعارف قاصر ، وعن فشل يجب أن نعتز به في التعارف والتعرف على الناس ، من قديم كان الناس يتعارفون ، فإذا بهم يتبادلون المنافع ، ويحرص كل منهم على معارفه يصون تجارته إن مرت ببلده ، والآخر يفعل ذلك . ولا شك أن القرآن الكريم يهدي للتي هي أقوم ومن الأقوم الذي يهدي إليه الكتاب العزيز أن يؤدي التعارف رسالته ، وأن يسفر عن فائدة متبادلة بين المتعارفين ، وألا يكون تعارفًا عن طريق الشات وغزل البنات ، وإنما يكون لتبادل الخبرات وقد رأى سيدنا رسول الله - ﷺ - أن إرضاع الحامل مولودها لا يضر بالجنين في أمة بعيدة ، فأرشد إليه المسلمين ، ولم يقل إنه وحي من الله ، وإنما قال : وجدته عندهم لا يضر ، فهازلنا في حاجة إلى ثمرات التعارف برغم الاختلاف .. وفرق كبير بين أن تقول لأخيك في الإنسانية جئت أتعرف عليك . وأهديك ، وأفيد منك وتفيد مني ، وبين أن تقول له : جئت لأقتلك ؛ فهذا الدين دعوة إلى الحياة ، لا إلى التقاتل .

﴿ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ﴾ .

يقول الله - تعالى - : ﴿ وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ ⁽¹⁾ .

الشاهد في الآية والذي يجب أن يكون نصب أعيننا قوله - تعالى - في خُلِقَ رسوله - ﷺ - في العتاب «عَرَفَ بعضه وأعرض عن بعض» والله در الزمخشري وغيره من السادة العلماء حيث قالوا إن الاستقصاء في العتاب ليس من المروءة ، والمروءة بلا شك في رسول الله - ﷺ - آية تمام ؛ لذا قال الله فيه ﴿ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ﴾ .

فمن فينا معشر المسلمين اليوم ، الذي إذا عابت زوجته أو ولده أو صاحبه لم يستقص وإنما تأسى بالأسوة الحسنة ، والخلق العظيم في سيد ولد آدم ، سيدنا رسول الله - ﷺ - فذكرنا شيئاً ، وأعرض عن أشياء . إن كثيراً من الناس إذا عاتبوا لم يذكروا فقط كل شيء ، وإنما يضيفون أشياء مختلفة من عند أنفسهم ، بناء على نظرة كانت ممن يعاتبونه ترجعها إلى سخرية واستهزاء ، فإن انتفض أمامهم وقال : والله لم أسخر ، ولم أستهزئ قال له : كذاب ، والله لقد سخرت واستهزأت بي ، فقد نظرت إلي نظرة تقول ذلك ، يا رجل ، عيب عليك وفي أغلب الأحوال يستحيل العتاب عراكا ، فإذا الهدف الذي شرع من أجله قد ضاع ، مثلما ضاعت أهداف كثيرة بسبب سوء سلوكنا في السبيل إليها ، تماماً كما يقال : «جاء لي كحلها فأعمها» .

فالعتاب شروع بين الناس من أجل أن يعودوا سيرتهم الأولى قبل حدوث ذلك الشيء الذي يتعابون من أجله ، ومن ثم كان على مَنْ يعاتب أن يكون رقيقاً في عتابه رحيماً بمن يعاتبه حتى يعود الصفاء بينهما كما كان ، ويعينه على الرفق والرحمة بمن يعاتبه ألا يستقصي ، أي يذكر شيئاً ويعرض عن أشياء كما كان سيدنا خاتم الأنبياء محمد - ﷺ - .

.....

﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ .

يقول - عز وجل - : ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ (1) .

أذكر في سياق هذه الآية المباركة أن كفار مكة آذوا رسول الله - ﷺ - إيذاء بالغاً ، بلغ مبلغه إذ أخرجه منها ، وهي مولده ، ومربع صباه ، ونشأته ومبعثه المبارك ، وما ذكر شيئاً مما أسمعته إياه ورقة بين نوفل إلا «أو مخرجي هم !؟» كأن صبره على الأذى متوقع ، وعلى التكذيب متصور ، أما إخراجهم من مكة أحب بلاد الله إلى الله ، وأحب بلاد الله إلى نفسه - ﷺ - فذلك أمر صعب عليه ، وجاءتهم نائبة ذكرها القرآن الكريم في سورة الدخان فسألوه أن يدعوه لهم الله فدعا ، وقال الله : ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ (2) .

ويوم أسلم ثمانية بن أثال ، ومنع عنهم الميرة أرسلوا إليه - ﷺ - يسألونه بالله والرحم أن يكتب إليه ليعطيهم ، فكتب إليه - ﷺ - وقال : «حَلِّ بين قومي وبين ميرتهم» .

(1) المزمل : 10 .

(2) الدخان : 15 .

انظر كيف كان - ﷺ - خلقه القرآن ، والقرآن يقول : ﴿ وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ .

هذا هو الهجر الجميل إن احتاج من هجرته أعطيته ، وإن استجار بك أجرته ، قال الله - تعالى - : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (1) .

فما للناس صار هجرهم عدا ، وفحشا ، وسوادا وبغضا .
وانظر إلى الطلاق ، ماذا قال الله فيه : ﴿ فَتَعَالَى أُمْتَعُكُنَّ وَأُسْرُحُكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ (2) .

أي سراحا جميلا بلا ظلم ، ولا نقص حق ، فكيف صار الطلاق مأساة في حياة المسلمين ، وظلما ، وسوادا كذلك .

وانظر ماذا قال الله في الصبر قال - تعالى - : ﴿ فَصَبِّرْ جَمِيلًا ﴾ (3) .
ولن يكون الصبر جميلا إلا إذا حبس المرء نفسه عن الشكوى لغير الله .
كل شيء في الإسلام جميل ، وعلينا أن نراه جميلا بأن نعمل بمقتضاه .

(1) التوبة : 6 .

(2) الأحزاب : 28 .

(3) يوسف : 18 .

﴿ فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّر مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ .

والأخيرة يقول الله - تعالى - : ﴿ فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّر مِنَ الْقُرْآنِ عِلْمٌ أَن سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ ۖ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ۖ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّر مِنْهُ ﴾ (1) .

قلت ذات يوم في محاضرة عامة عبارة عن سؤال وأجبت عنه ، فقلت : هل من الإسلام أن تعتكف على المصحف وليس في جيبك شيء ، أم من الإسلام أن تقرأ ما تيسر منه وتسعى لكي يكون في جيبك شيء ؟! وأجبت بأنه الثاني ، لا الأول ، وكانت هذه الآية دليلي على ما قلت ، لا رهبانية في الإسلام ولا كهنوت فيه ، ولا مبالغة في أمر من الأمور حتى في الحب والبغض ، وليس معنى هذا أن يهجر القرآن بالكلية ، إنما معناه أن الله لطيف بعباده والمداومة على القرآن مطلوبة لتفله كما جاء في الحديث . والعمل بها فيه واجب على كل مسلم ، وليس حفظه بواجب على كل مسلم .

رحم الله المريض فأمره بأن يقرأ ما تيسر من القرآن لأنه لا يطيق .

ورحم الله الذي يضرب في الأرض عاملاً وتاجراً وصانعاً فأمره أن يقرأ ما تيسر من القرآن .

السعة والضيق والابتلاء

﴿ كَلَّا ۖ ۞ ﴾

يقول الله - تعالى - : ﴿ فَأَمَّا آلِ نَسْنُ إِذَا مَا ابْتَلَنُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ
نَيْفَ أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَنُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ * كَلَّا ۖ بَلْ لَّا
تُكْرَمُونَ الْيَتِيمَ ۞ ﴾ (1).

كثير من الناس يظن أن الله أكرمه إذا توفر ماله وحسن حاله ، وكثير من الناس
من يظن أن الله أهانه أو ينتقم منه ، إذا كان قليل المال ، أو سيئ الظروف وقد تبين
من خلال هذه الآيات أن النعمة ليست دليل إكرام من الله ، وأن الابتلاء ليس دليل
غضب أو إهانة ، أو انتقام ، وإنما الأمران ابتلاء ، ويكون الإكرام أو الإهانة بعد
النجاح في هذا الابتلاء ، فإن شكر المنعم عليه فقد نجح في ابتلائه ، وإن صبر المبتلى
بشيء ، فقد نجح في ابتلائه كذلك ، ومن نجح فقد أكرمه الله - عز وجل - ومن
أخفق فقد أهان نفسه ﴿ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ
الدُّنْيَا إِلَّا مَتَعُ الْغُرُورِ ﴾ (2).

(1) الفجر : 15 - 17 .

(2) آل عمران : 185 .

المحتويات

الصفحة	الموضوع
5	مقدمة
11	الفصل الأول : أخطاء شائعة في تفسير بعض آيات القرآن الكريم
11	﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾
14	﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾
15	﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾
18	﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾
20	﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِنْهُمْ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى﴾
22	﴿وَقَدْ مَوَّا لِأَنْفُسِكُمْ﴾
24	﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾
26	﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ﴾
29	﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾
32	﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾
35	﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ﴾
37	﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾
39	﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾
41	﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾

- 44 ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾
- 47 ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾
- 48 ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾
- 50 ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾
- 53 ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾
- 55 ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾
- 58 ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا﴾
- 66 ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾
- 68 ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾
- 70 ﴿وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ﴾
- 73 ﴿الْحَنِيشَتُ لِلْخَيْثِثِينَ﴾
- 75 ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَةِ﴾
- 77 **الفصل الثاني : فاعتبروا يا أولي الأبصار**
- 77 ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾
- 79 ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾
- 82 ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾
- 85 ﴿فَهُمْ فِي رَبِّهِمْ يَزِيدُونَ﴾
- 87 ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾

- 90 ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾
- 94 ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلُوكَ﴾
- 97 ﴿فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا﴾
- 99 ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾
- 102 ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ﴾
- 105 ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ﴾
- 107 ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوْفَيْنَكَ﴾
- 110 ﴿فَلَنُخَيِّبَنَّهُ خَيْرَ طَيِّبَةٍ﴾
- 112 ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾
- 116 ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾
- 119 ﴿وَأَمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ أَتْبَعَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾
- 121 ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً...﴾
- 123 ﴿فَابْتَغُوا أَحَدَكُمْ بَورِقَكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾
- 126 ﴿فَاعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾
- 127 ﴿يَبِيحِي خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾
- 128 ﴿فَلَمَّا أَعْتَرَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ رَءً﴾
- 130 ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لَتَشْقَىٰ﴾
- 132 ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾

- 134 ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾
- 136 ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ...﴾
- 138 ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آزِجُوا فَآزِجُوا...﴾
- 140 ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ...﴾
- 141 ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾
- 143 ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾
- 144 ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾
- 146 ﴿وَلَا مُسْتَعْتَبِينَ لِحَدِيثٍ﴾
- 148 ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾
- 150 ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾
- 151 ﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾
- 153 ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ هُمْ﴾
- 155 ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾
- 157 ﴿لِتَعَارَفُوا﴾
- 159 ﴿عَرَفَ بَعْضُهُ، وَأَعْرَضَ عَنِ بَعْضٍ﴾
- 160 ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾
- 162 ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾
- 163 ﴿كَلَّا﴾

